

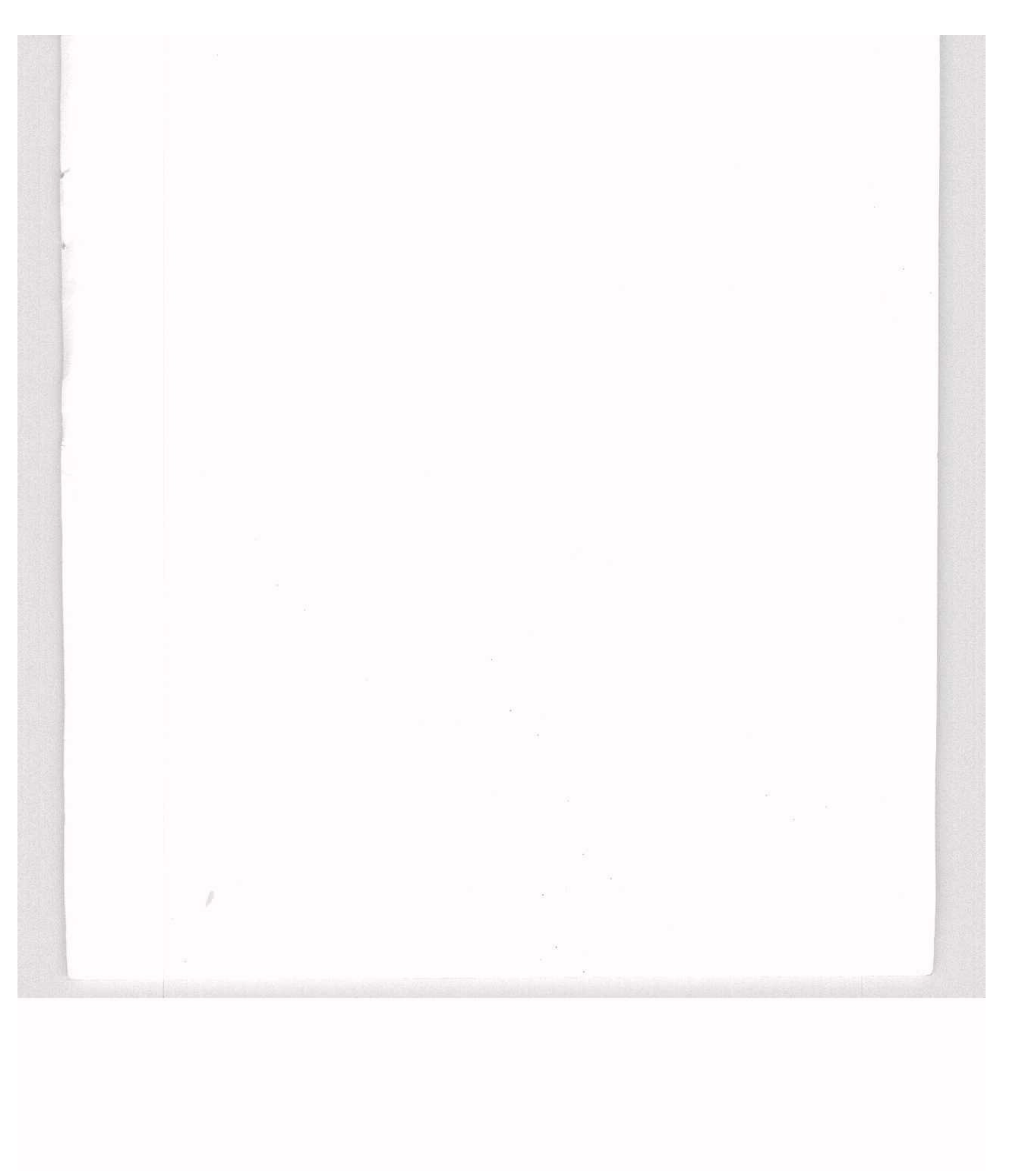


السلسلة الثقافية لطلائع مصر
٣٧

فبراير ٢٠٠٧

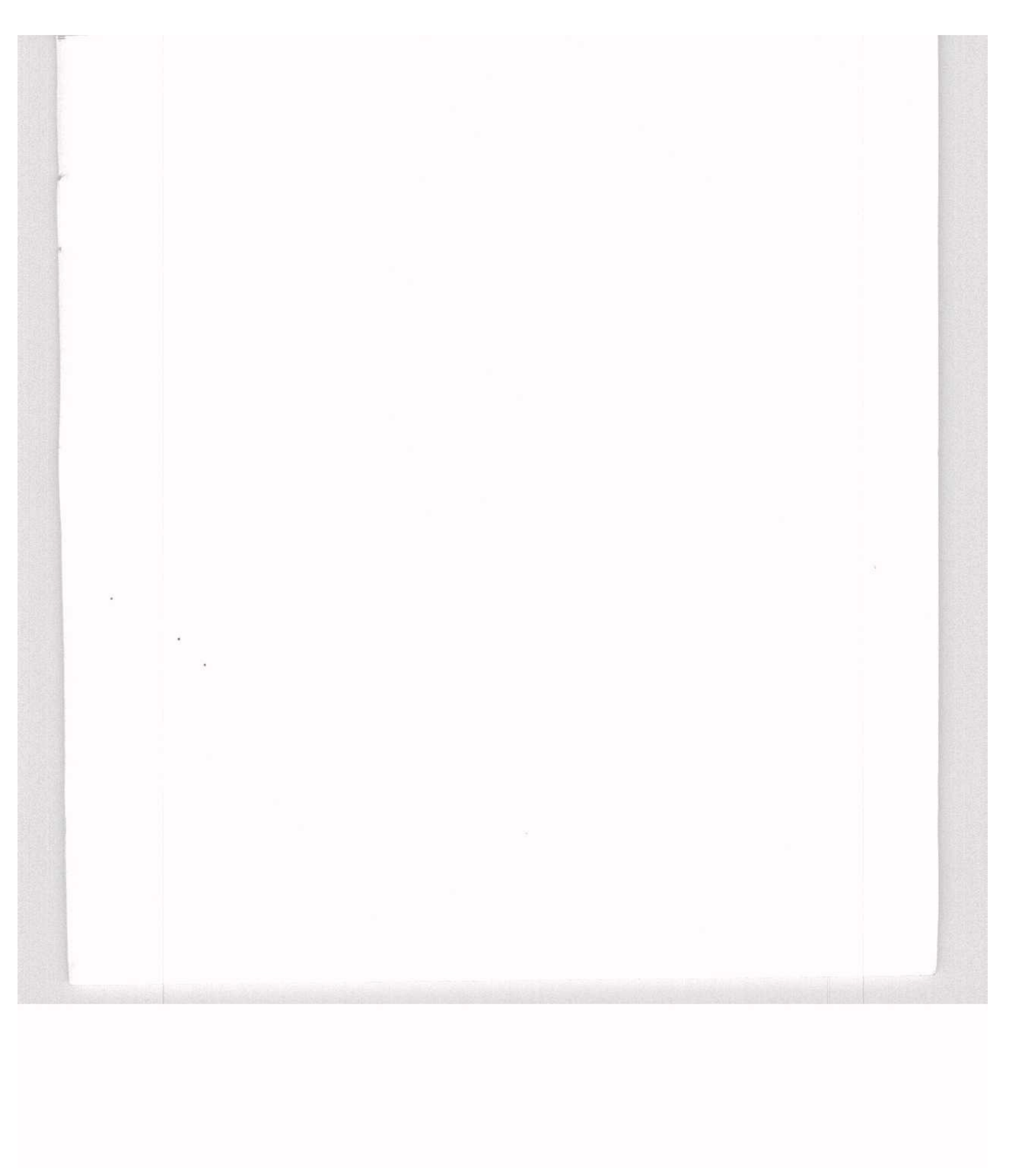
مصطفى مشرفة

بقلم د . محمد الجوادي





السيدة الفاضلة/ سوزان مبارك
راعية الطفولة فى مصر



تحية وتقدير



إيماناً بأهمية الإرتقاء بطلائع مصر.. جيل المستقبل، يواصل المجلس القومى للشباب إصدار السلسلة الثقافية للطلائع وذلك لإتاحة الفرصة لملايين النشء على أرض الوطن، للقراءة والتعرف على تراث بلدهم وأيضاً الإنفتاح على الثقافات العالمية، وتعميق مفاهيم المعرفة والإطلاع، فالكتاب خير سفير، والقراءة غذاء للروح والعقل، و تسهم في صنع وتشكيل الثقافات باعتبار الكتاب مصدر المعرفة الأول وخير جليس للإنسان مهما تعددت مصادر المعرفة في ظل عصر المعلومات، و سلسلة قمم مصرية تتناول الشخصيات التي أثرت في النهوض بالمجتمع المصري في العصر الحديث، ليتعرف النشء على سيرة هؤلاء الرواد والأعلام لتكون أمامهم الفرصة لاختيار القدوة و ذلك بهدف الإرتقاء والنهوض بعقولهم ومداركهم للتحليق في الآفاق العالمية، ومواكبة التطورات من حولنا محلياً وإقليمياً وعالمياً،حتى لا يعيش أبناؤنا في معزل عن هذه التطورات المتلاحقة .

وباسم طلائع مصر نعرب عن تقديرنا للدور الحيوي الذي تقوم به السيدة الفاضلة/ سوزان مبارك في رفع شعار القراءة للجميع. ونشر الثقافة بين أبناء مصر في كل مكان.

د/ محمد صفى الدين خربوش

رئيس المجلس القومى للشباب

المجلس القومى للشباب
الإدارة المركزية للطلائع
السلسلة الثقافية لطلائع مصر

رئيس مجلس الإدارة
د. محمد صفى الدين خربوش

رئيس التحرير
د. محمد أبو الخيـــر

هيئة الإشراف
محمد الغمرى
إبراهيم عبد السلام - عبد الرازق غندور

لوحات وغلاف
أحمد شربى

المراسلات
المجلس القومى للشباب
الإدارة المركزية للطلائع
شارع ٢٦ يوليو، ميدان سفنكس
تليفون وفاكس: ٣٤٦٧٣٦٧

tmisr@alshabab.gov.eg
www.pioneersegypt.com

التجهيزات الفنية والطباعة
الشركة المتحدة للطباعة والنشر والتوزيع
(المطبعة الأمنية)

إشـــــراقـــــة

عالمنا المعاصر وما به من تعددية ثقافية وثورة تكنولوجية تحتم علينا أن نضع رؤى جديدة لتحديات المستقبل.

وانطلاقاً من الإستراتيجية العامة للإدارة المركزية للطلائع التى تؤكد على الكشف المبكر عن المواهب (من ٦ - ١٨ سنة) فى مجالات النشاط المختلفة وصقلها ورعايتها لهذا نعمل من خلال الشعب الفنية والمنتديات الثقافية، وأندية المبتكرين، وأندية القرن الحادى والعشرون، وجماعات البيئة برعاية أبناء هذا الوطن من الطلائع الموهوبين والمبدعين.

و هذا الإصدار عن د. مصطفى مشرفة هذا العالم الجليل الذي يجمع بين المعرفة العلمية و الفنية و الإدارية إنما هو نموذج للشخصية المتكاملة التي نريد أن يتمثلها نشء و شباب مصر.

تمنياتى أن تكون هذه السلسلة الثقافية منارة فى طريق الإبداع، وأيضاً للتواصل بين الأجيال، وفتح لغة حوار مع الثقافة العالمية، لتقديم رؤى جديدة مستنيرة لمصرنا الحبيبة.

د. محمد أبو الخير
وكيل الوزارة
رئيس الإدارة المركزية للطلائع

المقدمة

حين انتقلت روح مشرفة إلى الرفيق الأعلى صباح السادس عشر من يناير منذ ثلاثين عاما، لم يكن رصيده في البنك يتعدي مائتين أو ثلاثمائة من الجنيهات. لكن رصيد مشرفة عند ربه وعند شعبه وفي علمه كان أكبر من أن يقاس بالمقاييس الدنيا.

فقد ترك مشرفة كلية العلوم الأولي في مصر، وقد أصبحت من كليات العلوم الأولي على المستوي الدولي بفضل الجهود المخلصة التي بذلها صاحبنا طيلة أربعة عشر عاماً قضتها الكلية تحت عمادته، ابتداء من مايو ١٩٣٦ حين آل أمر العمادة في كلية العلوم إلى أبناء الوطن، فتولي أمرها مشرفة عميد العلماء المصريين وأولهم وأوسعهم شهرة وأبعدهم صيتاً، فأضاف العمادة إلى سلسلة طويلة من الدرجات والمراكز العلمية التي أتيح له أن يكون الأول في السباق إليها والحصول عليها.

فقد كان مشرفة ـ رحمه الله ـ أول أستاذ مصري في كلية العلوم وهو لا يزال في السابعة والعشرين من عمره القصير.

وفي كلية العلوم استطاع مشرفة أن يقدم لمصر حشداً من أكفأ أبنائها العاملين عن علم والعاملين بالعلم. والله يشهد أن كلية العلوم لم تخرج في عهد الرجل العظيم إلا الجوهرة تلو الجوهرة، ولم يكن غريباً على هذه الكلية إذن ما تمتعت به من سمعة طيبة على جميع المستويات.

على أن لمشرفة بالإضافة إلى هذا كله فضله في تمصير العلم، وقد نجح مشرفة في ذلك نجاحاً لم يستطع أحد من اللاحقين مجاراته فيه، ولعل السر في هذا أن مشرفة سلك إلى هدفه الطريق القديم حين أيقن أن السبيل الأول إلى ذلك هو تعليم العلم في المرحلة الجامعية باللغة القومية، ثم أدرك أن هذه هي مهمة الأستاذ الجامعي قبل أن تكون مهمة الدولة أو الطالب أو المجامع اللغوية والعلمية. ومن ثم فإن على الأستاذ أن يتقن بنفسه العلم في لغته، وهذا هو ما فعله مشرفة في علم الرياضة التطبيقية .

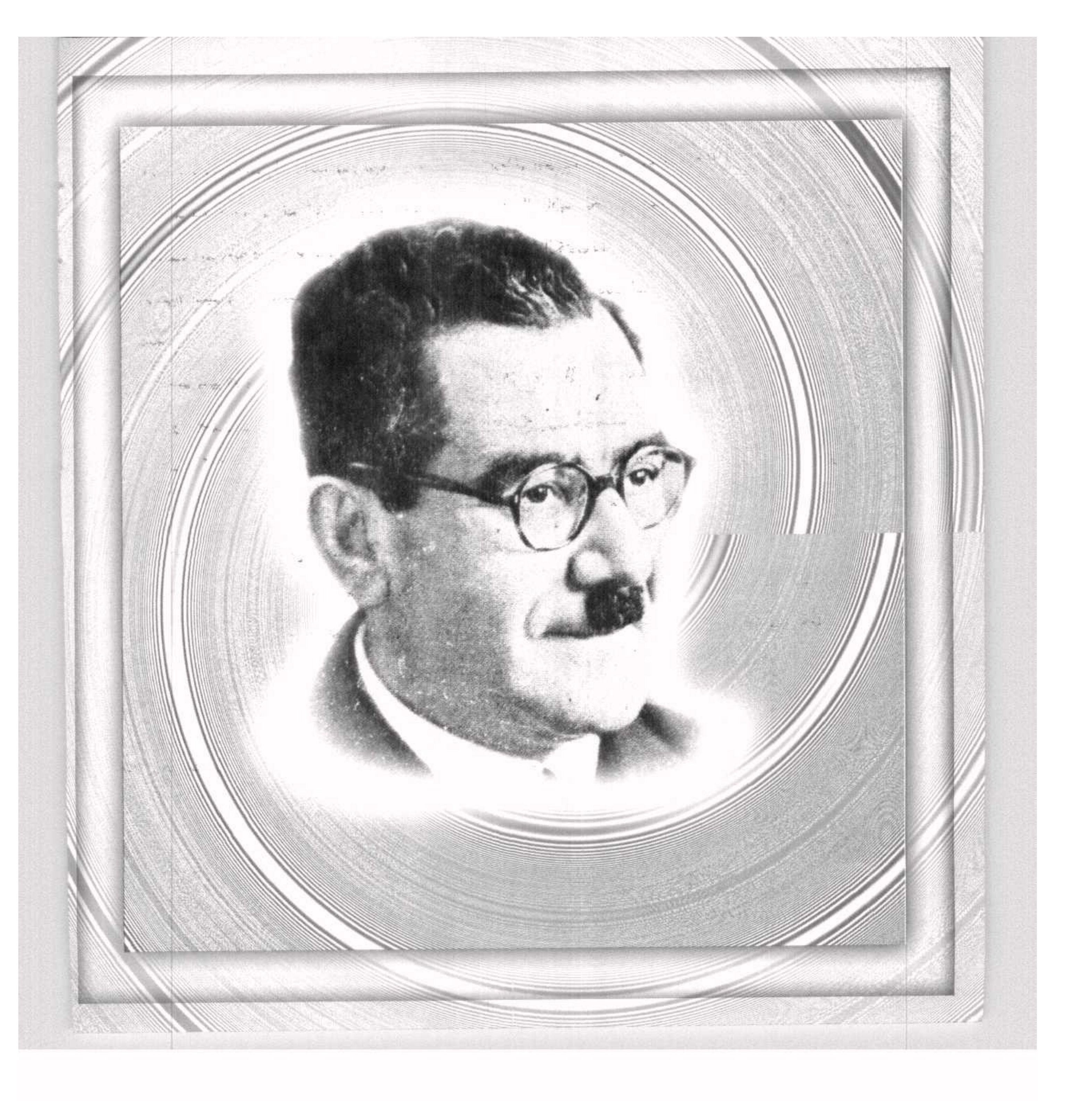
وهكذا بدأ مشرفة تدريس الرياضة التطبيقية في كلية العلوم باللغة العربية حين كانت العلوم الأخرى تدرس جميعها بلغات الأساتذة الأجانب، ثم شارك مشرفة إخوانه من أساتذة الرياضة الكبار في كلية الهندسة ووزارة المعارف في وضع الكتب والمراجع في فروع الرياضة المختلفة. وقد صارت هذه الكتب منذ ذلك الحين بمثابة مراجع قومية ينقل عنها الأستاذ المصري والطالب العربي حتى يومنا هذا، وعنها أخذت كل كتبنا التي ألفت في هذه الفروع الرئيسية من العلم.

وهكذا أسهم مشرفة في هذا المجال بأروع الجهد الذي لم يزل أثره باقيا إلى اليوم حين نجد علوم الرياضة هي العلوم الأولي بل والأخيرة التي تدرس في جامعاتنا القومية بلغتنا القومية.

وقد نأي مشرفة بنفسه عن لعبة السياسة منذ البداية، فقد كان جد مقتنع بأن هذا الذي يخوض فيه الساسة المصريون ليس بالسبيل الأمثل إلى تحرير البلاد والنهوض بها، وإنما يأتي النهوض عن طريق العلم والعمل به والعمل لأجله، وهكذا كان صاحبنا صادقاً في توجيه كل جهده إلى تحقيق المجد فيما جد فيه.

وكانت ثقافة مشرفة مثالاً رفيعاً في تعدد مناهلها وتكامل حلقاتها. فقد كان الرجل بالإضافة إلى علمه الغزير كاتباً موفقاً، وخطيباً مفوهاً، وعالماً باللغة والأدب إلى الحد الذي جعله بلا مبالغة يناظر عميد الآداب الدكتور أحمد أمين، وعميد الأدب العربي الدكتور طه حسين، والأستاذ عباس العقاد.

وكانت ثقافة مشرفة التي وسعت كثيراً من العلوم والمعارف رياضية الأصل رياضية الطباع يسيطر عليها النظام الدقيق لا النظام الشكلي وينتظمها المنطق السوي لا ا لمنطق المرتب.



الباب الأول

سيرة حياة د.مشرفة

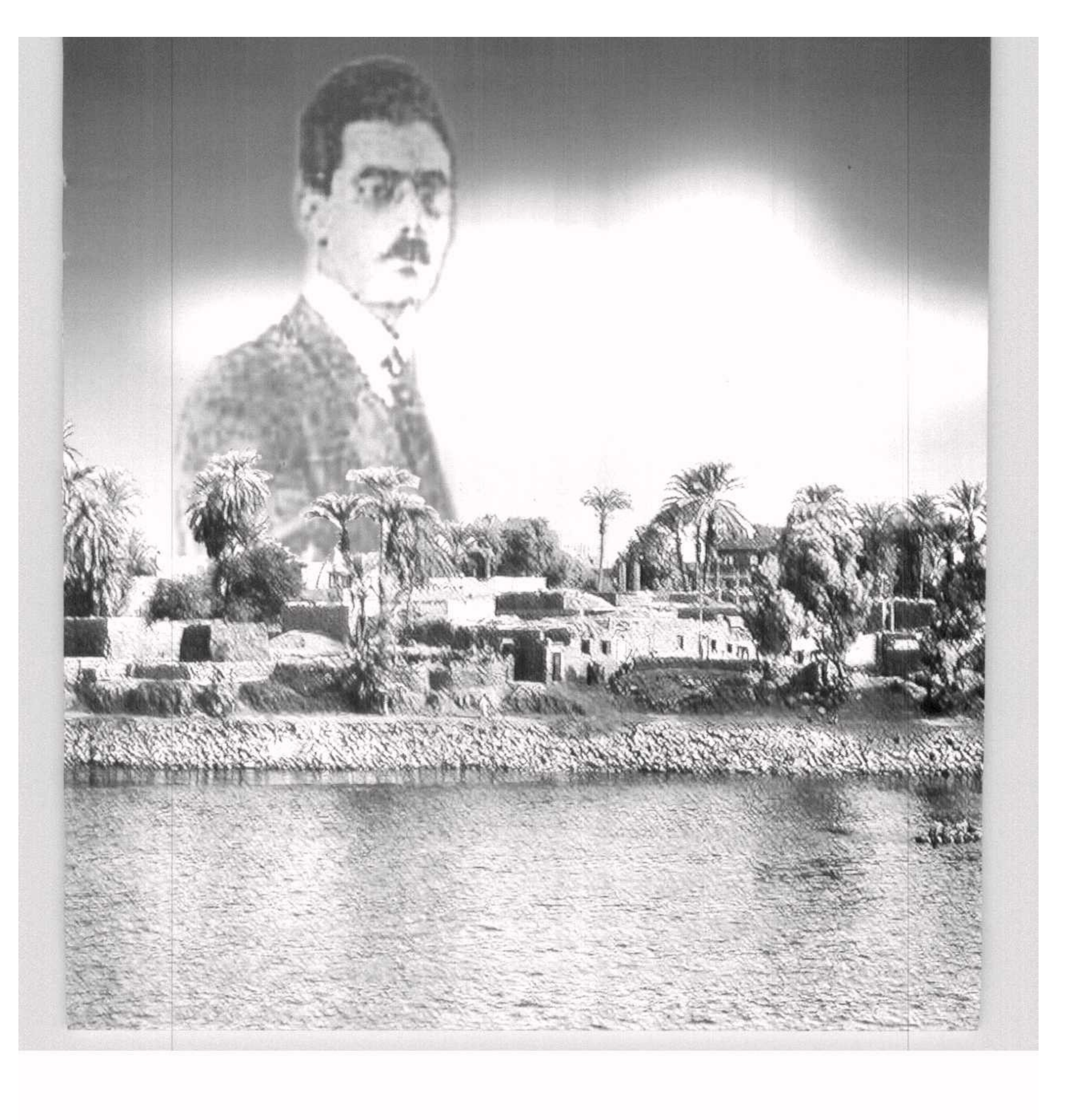
(يوليو ١٨٩٨-يناير ١٩٥٠)

ولد الدكتور علي مصطفى عطية مشرفة في ٢ صفر سنة ١٣١٦ هجرية، الموافق ١١ يوليو ١٨٩٨ ميلادية في حي المظلوم من مدينة دمياط.

وكان والده من ذوي اليسر والجاه، وقد عرف الإمام جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده فكان واحداً ممن تأثروا بدعوتهما إلى الاجتهاد في الدين والإصلاح الاجتماعي ومحاربة البدع.

وقد قضى مشرفة السنوات الأولى من طفولته في رغد من العيش، وهناءة بال، إلى أن حلت بوالده في سنة ١٩٠٧ أزمة من أزمات القطن الشهيرة التي كانت تهز الاقتصاد المصري فتهوي بالأغنياء إلى قاع الفقر، وتستطيع أن تتصور المحنة التي نزلت بأسرة مشرفة من جراء شدة تلك الأزمة التي أودت بمائتي فدان كان الوالد يمتلكها.

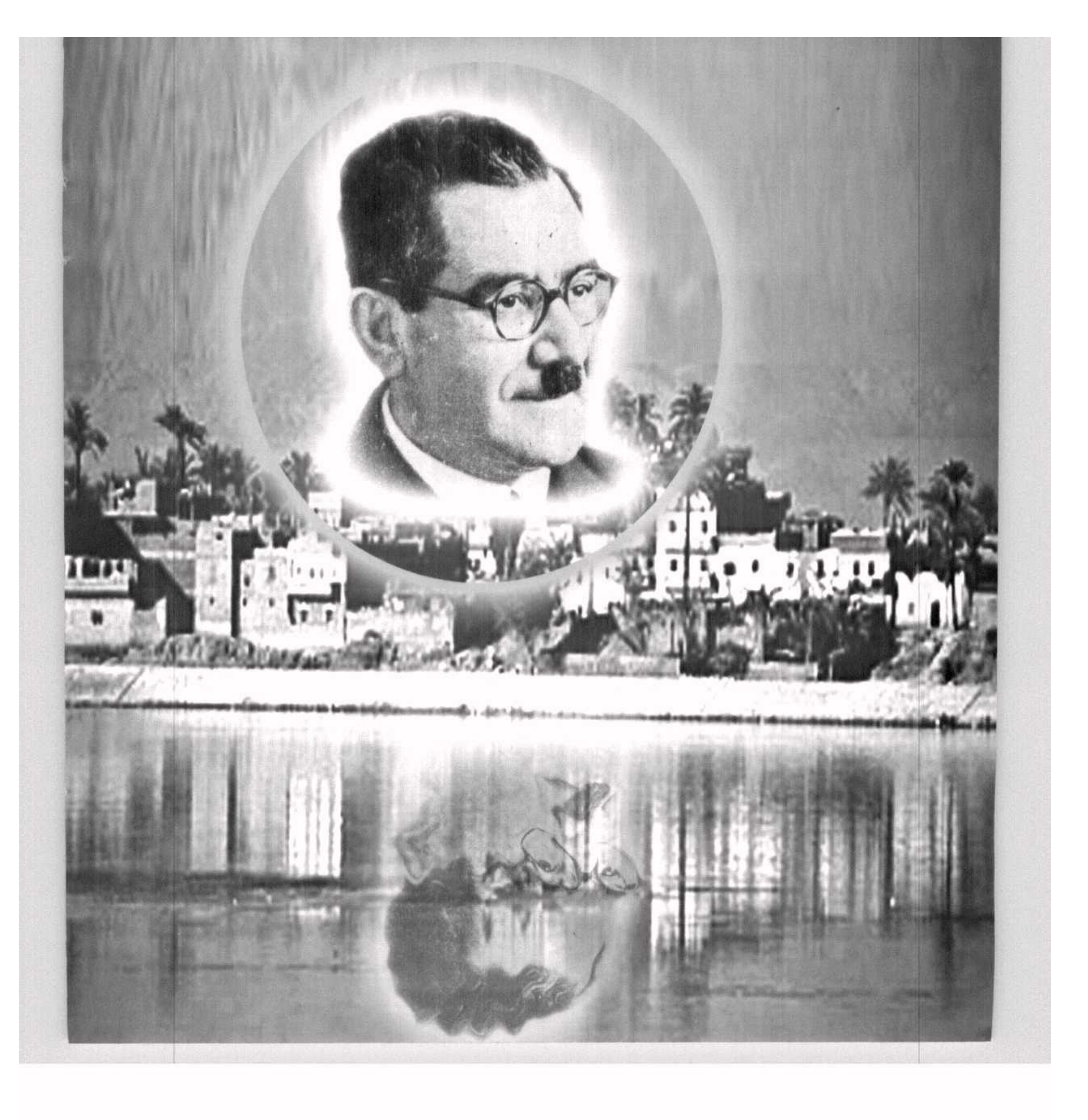
على أن المسألة لم تقف عند هذا الحد من الفقر بعد غنى، وإنما ذهبت تترك بصماتها في الحياتين العائلية والاجتماعية لأسرة صاحبنا، وتفاقمت الأزمة عندما ترك والد صاحبنا الحياة الدنيا إلى الآخرة قبل امتحان الابتدائية بشهور، ولم يذهب علي ـ وهو ولي العهد والرب الجديد للأسرة ـ ليؤدي عملاً يقيم أوده وأود إخوته، لكنه ذهب يؤدي امتحان الابتدائية فيحرز المركز الأول في هذه الشهادة على القطر المصري سنة ١٩١٠.



وكان لمشرفة أختاً تليه في السن هي المغفور لها السيدة نفيسة، تزوجت من محمد بك الجندي، ثم ثلاثة أخوة: المغفور له الدكتور مصطفى وكان أستاذا للغة الإنجليزية في آداب القاهرة، والدكتور عطية وكان مديرا لمكتبة جامعة القاهرة، واللواء حسن مشرفة وكان مديرا للمرور.

وانتقل مشرفة وإخوته إلى حي عابدين بالقاهرة حيث أقاموا قريبا من جدتهم والدة أمهم، والتحق مشرفة بالمدرسة العباسية الثانوية في الإسكندرية بالمجان وفي القسم الداخلي، فقضي السنة الأولي من دراسته الثانوية مثالا للتفوق والجد والعزلة في سبيل العلم، ثم طلب التحويل إلى القاهرة فأجيب إلى طلبه ونقل إلى المدرسة السعيدية الثانوية فقضي بها بقية سنوات دراسته الثانوية، وظل على العهد به أستاذا في طلب العلم حتى إن مدرس اللغة العربية لم يكن يناديه إلا بالسيد تقديرا وإعجابا.

وكأنما كان انتقال والدي مشرفة من حياة إلى حياة على موعد مع انتقاله من مرحلة إلى مرحلة، فها هي والدته تنتقل إلى رحاب الله قبل أن يؤدي امتحان البكالوريا بشهرين اثنين، ثم تعلن نتيجة البكالوريا سنة ١٩١٤ أن علي مصطفى مشرفة كان الثاني على طلبة القطر المصري الذين اجتازوا امتحانها بنجاح.



أصبح في يد مشرفة سلاحا من أمضي الأسلحة وأقواها على فتح أبواب الوظائف الحكومية المرموقة، غير أن مشرفة لم يفتح بذلك السلاح بابا من هذه الأبواب الحكومية، ولا باب كلية الطب التي كانت ـ لاتزال ـ تستهوي الأوائل، وإنما آثر مشرفة على ذلك كله أن يلتحق بمدرسة المعلمين العليا، وكانت الدراسة فيها ثلاث سنوات كان خلالها الدكتور مشرفة يحتل المركز الأول إلى أن حصل على دبلومها سنة ١٩١٧ وكان ترتيبه الثاني على الدبلوم.

وكان ترتيبه يؤهله للابتعاث إلى انجلترا للاستزادة من العلم، ولم يتوان مشرفة في السفر إلى منهل العلم الذي طالما تاقت إليه نفسه، وسافر من توه إلى انجلترا في سنة ١٩١٧ فالتحق بكلية نوتنجهام وأخذ يدرس من أجل الحصول على درجة البكالوريوس في الرياضة، وكان الحصول عليها يستغرق ٤ سنوات من الدراسة اختصرها مشرفة إلى ٣ سنوات فقط، فحصل على درجة البكالوريوس في الرياضة مع مرتبة الشرف من جامعة لندن في خريف سنة ١٩٢٠.

وتأججت ثورة مصر سنة ١٩١٩ ضد المستعمر الإنجليزي، وكان مشرفة لايزال يدرس في بلاد هذا المستعمر، عندئذ أحس مشرفة بحرج موقفه وهو في بلد أعدائه وكتب يستشير أخاه مصطفى في العودة فأشار عليه بالبقاء، ثم سجن شقيقه هذا مع الآلاف من الذين اشتركوا في الثورة، وعلم مشرفة بسجن أخيه فكتب من لندن كتابا يفخر فيه بأخيه الذي أدي ضريب الوطن نيابة عن الأسرة.

وبعد أن حصل مشرفة على درجة بكالوريوس العلوم مع مرتبة الشرف من جامعة لندن سنة ١٩٢٠ كتب أساتذته يشيرون على وزارة المعارف في مصر بإتاحة الفرصة له حتى يدرس للحصول على دكتوراه الفلسفة في العلوم، إلا أن نفوذ المستعمر الإنجليزي في وزارة المعارف المصرية وعلى عقول رجال هذه الثورة كان شر عائق في طريق مشرفة، لكن الله سبحانه وتعالى قيض أحمد طلعت باشا ذات يوم ليكون على رأس وزارة المعارف، وكان ينتمي بنسب إلى عائلة مشرفة، ورخصت وزارة المعارف لمشرفة بالاستمرار في بحوثه للحصول على درجة الدكتوراه.

ولم يكن مشرفة ينتظر مثل هذا القرار ليواصل دراسته، وإنما أخذ يدرس ويعمل ويبحث من دون طعام يكفيه، ولا



نوم يأتيه حتى تأثرت صحته وبدا عليه الإعياء والإرهاق فكان يعالجها بالصبر حتى جاءه الفرج، ففي شهر فبراير سنة ١٩٢٣ حصل على درجة الدكتوراه في فلسفة العلوم في أقصر مدة تسمح بها قوانين الجامعة، وهكذا أصبح الدكتور مشرفة عضوا في الجمعية الملكية البريطانية، ونشرت له المجلات العلمية المتخصصة عددا من الأبحاث الممتازة في نظرية الكم، وأخذ مشرفة يحاضر العلماء من أعضاء الجمعية الملكية يوما بعد يوم ولم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره، واستمر يواصل أبحاثه تحت إشراف أستاذه السير ريتشاردسون أكبر علماء الطبيعة في عصره.

وفي يوم ١١ نوفمبر سنة ١٩٢٣ عاد الدكتور على مشرفة إلى مصر فعمل مدرسا بمدرسة المعلمين العليا طيلة الفترة الباقية من ذلك العام الدراسي، وكانت الأستاذية في مدرسة المعلمين وقتذاك مكانة رفيعة لا يتبؤوها إلا العلماء الأجلاء الذين اشتعلت رؤوسهم شيبا، فكيف بمشرفة وبعض تلاميذه يكبرونه سنا، إلى مثل هذه المكانة الرفيعة جديرة بأن تكون منتهي أمله؟ بحاضرها السعيد، ومستقبلها العريض، ومالها الوفير، وجاهها العظيم.

لكن آمال مشرفة في الحصول على درجة الدكتوراه في العلوم ظلت تلح عليه منذ عودته، وأخذ يسلك الطرق التي ظنها تودي به إلى تحقيق أمله حتى استطاع الحصول على ترخيص بالسفر خلال الإجازة الصيفية، وكانت تبدأ في تلك السنة في السابع من يونيو وتنتهي في الثامن والعشرين من سبتمبر سنة ١٩٢٣، وسافر مشرفة مع حلول الصيف مرخصا له من الحكومة بالسفر على حسابه على أن تصرف له الحكومة نفقات هذا السفر، وعشرين جنيها فوقها إذا ما حصل على درجة الدكتوراه في العلوم.

وواصل مشرفة ليله بنهاره في صيف سنة ١٩٢٣ حتى انتهي من إعداد رسالة دكتوراه العلوم فعرضها على أستاذه ريتشاردسون، ولم تكن جامعة لندن تسمح بدخول هذه الدرجة إلا بعد مرور عامين على الأقل على حصول الطالب على درجة دكتوراه الفلسفة في العلوم، وتقدم مشرفة ـ بناء على نصيحة أساتذته ـ يلتمس إذنا خاصا من مجلس إدارة الجامعة يمكنه من دخول الامتحان في أقرب فرصة نظرا لأنه نشر أبحاثا علمية جليلة القدر، وفي ١١ نوفمبر ١٩٢٣ وافق مجلس إدارة جامعة لندن للدكتور مشرفة على أن يؤدي هذا الامتحان بصفة استثنائية في يوم ٢٤ يناير

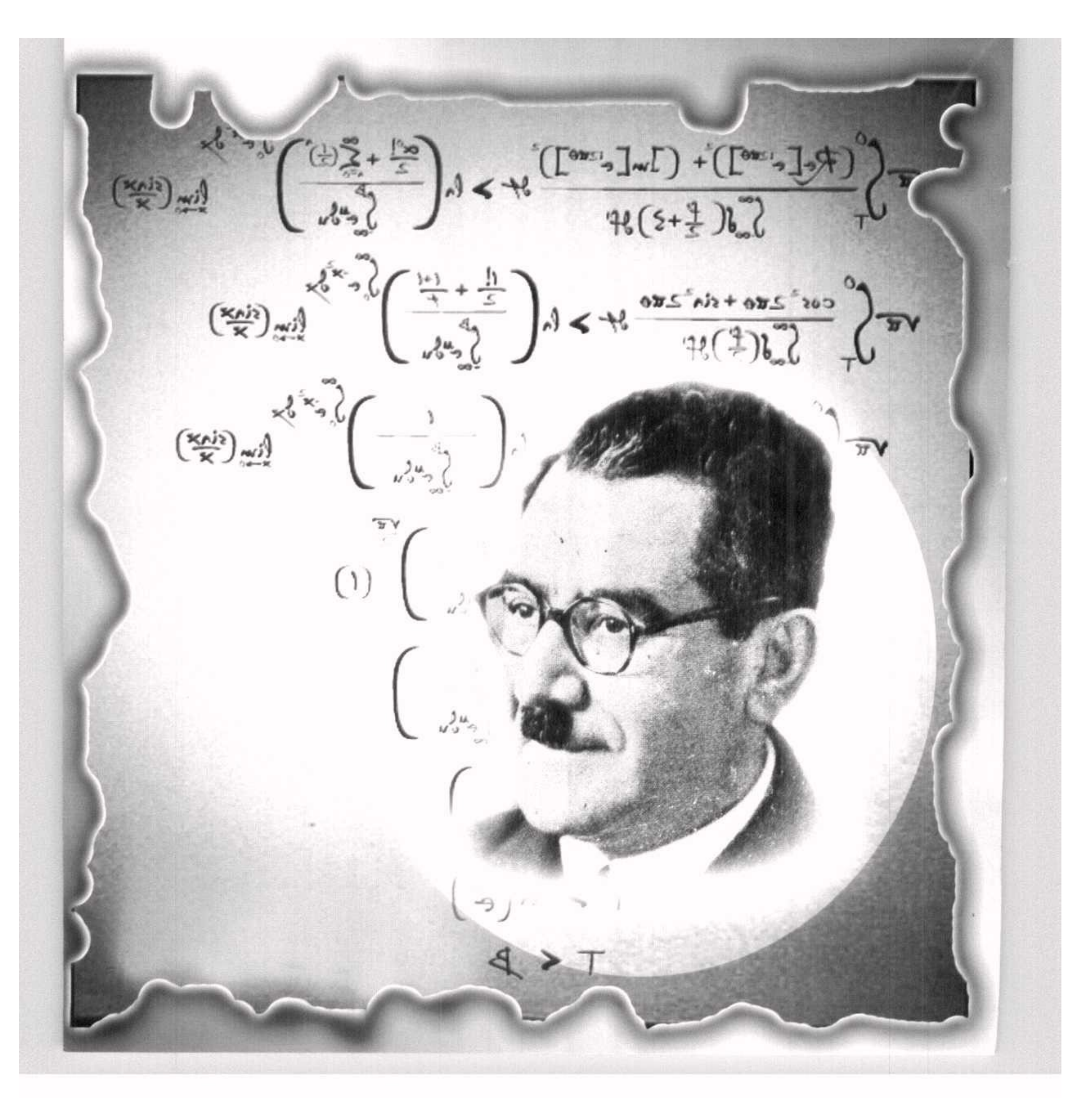
سنة ١٩٢٤، وأدي مشرفة الامتحان في الموعد المحدد، فلما انتهي منه عاد إلى مصر يوم ١٤ فبراير ١٩٢٤. ولم يطل به الانتظار، فقد أعلنت نتيجة الامتحان في مارس سنة ١٩٢٤، وليس لنتيجة الامتحان في الحديث عن مشرفة إلا مدلول واحد، وهكذا أصبح مشرفة العالم رقم ١١ على العالم الذي حصل على درجة الدكتوراه في العلوم، وأول عالم مصري يحصل على هذه المكانة الرفيعة.

وأعلنت مدرسة الطب المصرية سنة ١٩٢٤ عن وظيفة أستاذ لـعلم الطبيعة، وتقدم الدكتور مشرفة بأوراقه ضمن مَنْ تقدموا لشغل هذه الوظيفة، وقد بات مطمئنا إلى اختياره لها، ثم أصبح ففوجئ بجناب الناظر الإنجليزي لمدرسة الطب يعين واحدا من العلماء الأجانب لا يحمل من المؤهلات ما يحمله مشرفة، وذهب مشرفة فقابل الناظر وعرض له في صراحة وشجاعة وجهة نظره في أنه صاحب الحق، فلم يملك الرجل إلا أن يصارح مشرفة بأن هذه الوظيفة منشأة خصيصا لهذا الأجنبي بصرف النظر عن المؤهلات الدراسية والعلمية.

ولما أنشئت الجامعة المصرية سنة ١٩٢٥ تقدم مشرفة بأوراقه لوظيفة أستاذ في كلية العلوم، فعينته الجامعة أستاذا مساعدا، ورفضت تعيينه في وظيفة أستاذ، متعللة بأن سنه أقل من الثلاثين، وكان من شروط الأستاذية في الجامعة المصرية أن يكون الحائز لها قد وصل إلى الثلاثين، وقبل مشرفة التعيين في وظيفة أستاذ مساعد على مضض، ويروي أن الدكتور بينجام عميد كلية العلوم قال لمشرفة: كيف أكون عميدك وأنت تحمل من الدرجات العلمية ما لا أحمله؟ ورد عليه مشرفة في أسي: لأن حكومتي هي التي تريد ذلك.

غير أن المسألة لم تنته عند هذا الحد، فقد أثارها نائب من نوابنا المخلصين في البرلمان، وكان سعد زغلول باشا رئيسا للبرلمان فحمل على الحكومة وقال: ›كيف تكرمه انجلترا ولا نكرمه نحن؟‹.

وكانت الجامعة المصرية قد بعثت تستشير جامعة لندن فيمن يصلح لتولي منصب أستاذ الرياضة التطبيقية في كلية العلوم فأشادت جامعة لندن بالدكتور مشرفة، واضطرت وزارة المعارف إلى إنصاف مشرفة وتعيينه أستاذا للرياضة التطبيقية في كلية العلوم سنة ١٩٢٦، فكان بذلك أول أستاذ مصري في كلية العلوم، ولم يتجاوز الثمانية والعشرين



من عمره.

وهكذا سلك الدكتور مشرفة طريقه في المناصب الجامعية كما سلكه من قبل في الدرجات العلمية بسرعة هائلة بفضل مواهبه وقدراته وجده واجتهاده، والحق أن مشرفة في هذا المجال قد حقق السرعة التي تناظرها سرعة الضوء في مجال الماديات، وفي يوم ٨ أكتوبر سنة ١٩٣٠ انتخب الدكتور مشرفة وكيلا لكلية العلوم، وظل يشغل هذا المنصب حتى سنة ١٩٣٦.

وعندما أجريت انتخابات العمادة بين أساتذة كلية العلوم في يوم ٤ مايو سنة ١٩٣٦ حصل الدكتور أحمد زكي على تسعة أصوات، وحصل الأستاذ حسن أفلاطون على ستة أصوات، وحصل الدكتور على مشرفة على خمسة أصوات، ثم أصدر وزير المعارف قراره بتعيين الدكتور مشرفة عميدا للكلية في يوم ٢٧ مايو سنة ١٩٣٦، وقيل إن السبب في تقديم مشرفة على الآخرين هو أنه أقدم الأساتذة الثلاثة، وهي حقيقة من غير شك ولا تأويل، غير أن الباحث المنصف لا يمكنه أن يغفل الرأي القائل بأن السياسة لعبت يومها دورا في تفضيل مشرفة، ولم يكن الأمر في هذا حبا لزيد بقدر ما كان كرها لعمرو، وإنما تأثرا بعلاقات شخصية كان لها أثرها في عصر الحزبية، ولم يكن قرار الوزير هو الذي جعل مشرفة أول عميد مصري لكلية العلوم، ولكن مشرفة كان عميد العلوم الأول في مصر والشرق بلا نزاع.



كانت الناحية الاجتماعية من أكثر النواحي التي أعطاها مشرفة اهتمامه، إذ كان حريصا على تنمية العلاقات الأسرية بين الأساتذة بعضهم وبعض، وبينهم وبين الطلاب، وكان يخصص يوما من كل شهر يفتح فيه بيته لهيئة التدريس وللطلاب والزائرين على هيئة يوم مفتوح، وكان يقوم على خدمة طلابه بنفسه، ويحض زوجته على الحفاوة بهم وإكرامهم.

وكان الدكتور مشرفة يعمل جاهدا على أن تكون حياة طالب الجامعة حياة متكاملة علميا وخلقيا ورياضيا، وكان يري أن كلا من هذه النواحي يجب أن ينال من عناية الجامعة ما يهيئ الفرص للطلاب لأن يتزودوا بالتقاليد النافعة

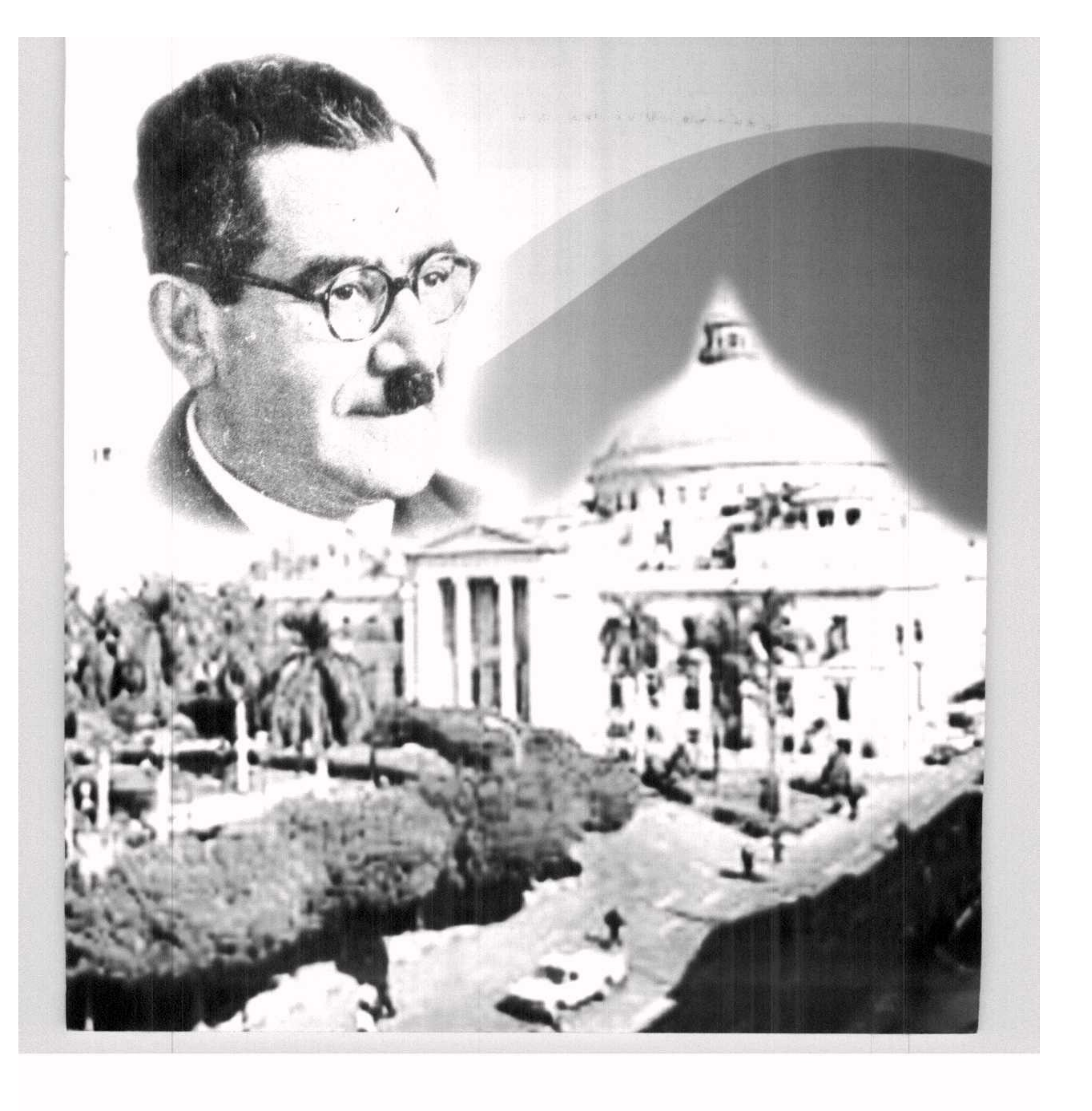
وحب الوطن بقدر ما يتزودون به من علم ومعرفة، ولم يكن يضن بوقته على تلاميذه، بل كان أصفي ما يكون ذهنا عند لقائه بهم في لجانهم أو مجالس اتحاداتهم أو في غير ذلك، يناقشهم فلا يطلب منهم التسليم بقدر ما يسعى معهم إلى الإقناع.

ولم يكن الدكتور مشرفة يدخر وسعا في مساعدة شباب الدول العربية والإفريقية على الدراسة في الجامعة والاستزادة من العلم، وكان لديه اقتناع بأن هذا الذي يفعله هو السبيل الأمثل لمساعدتهم في تحرير بلادهم والنهوض بها قبل الاستقلال وبعده.

ولم تكن مجانية التعليم قد تقررت أيام كان مشرفة عميدا لكلية العلوم، لكنه قرر مجانية التعليم في صورة أروع فكان يمنح كل طالب حصل على جيد جدا في نهاية العام «المجانية»، أما الباقون من الطلاب فكانوا يعفون من ثلاثة أرباع المصروفات أو نصفها حسب تفوقهم في الامتحان، وكان هذا يتم بناء على قواعد مدروسة تطبق على الجميع دون استثناء.



وكان مشرفة بعوده الصلب وشخصيته التي لا تلين في الدفاع عن الرأي السديد سدا منيعا من كلية العلوم في كثير من الأحيان من التأثر بالتيارات الجارفة التي كانت تتلاطم من حولها وتكاد تعصف بكل شيد، وكانت مواقفه مع أصحاب السلطة والسلطان مشرفة للعلماء والجامعيين، فلم يكن مشرفة يخاف فيما يراه حقا لومة لائم، وحدث أن وزارة إسماعيل صدقي باشا منعت طالبا في كلية العلوم من دخول الكلية فما كان من مشرفة إلا أن اصطحب الطالب في سيارته إلى الكلية.



وقد أعطي مشرفة قضايا أمته كثيراً من عنايته ووقته ، وكانت له آراؤه السديدة في كل قضاياها تقريبا ، وكان يمثل على الدوام رأي العلم الحاسم في هذه القضايا.

وكان لمشرفة في نهر النيل أمل عظيم، وكان يدعو إلى إنشاء معهد علمي تجريبي لدراسة طبيعيات النيل على أن يزود هذا المعهد بالمعامل اللازمة لإجراء التجارب العلمية، وأن يضم المتخصصين في فروع هذه الدراسات بحيث يصبح بمثابة أداة لتنسيق الجهود وتوجيهها بين المشتغلين بهذه الفروع من علمائنا ومهندسينا، ذلك أن أهمية النيل لم تعد محدودة بحدود هندسة الري وما تقتضيه من إقامة الجسور وشق الترع وما إلى ذلك، بل إنها قد اتسعت لتشمل جميع المشاريع الإنشائية التي ترتبط بخزن مياه النهر وتصريفها واستغلال طاقتها وهكذا كانت دعوته المبكرة إلى توليد الكهرباء من المساقط المائية على النيل.

وظل مشرفة يدعو بإلحاح إلى استغلال مساقط النيل في استخراج الطاقة الكهربائية، وكان يستحث الحكومة على السير قدما في مشروع كهربة خزان أسوان حتى ترتفع حصة الفرد المصري الواحد في السنة من العدم أو ما هو في حكم العدم إلى ١١٠ كيلووات/ ساعة، وكان مشرفة يبين بالأدلة العلمية أن استغلال النيل عند أسوان في استخراج الطاقة أمر منفصل تماما عن كل ما أعلن الساسة وقتها اتصاله به من تعلية الخزان، وما إلى ذلك، وكان يطمئن الحكومة على أن مصاريف هذا المشروع لا تعد شيئا بجانب النتائج الضخمة التي ستعود من إنشائه.

ولم يكن طموح الدكتور مشرفة في الارتقاء بالمستوي العلمي المصري يقف عند حد، وكان طموحه هذا يدفعه إلى سلوك السبل التي ثبت نجاحها في تحقيق مثل هذا الهدف، فنادي بتكوين المجمع المصري للثقافة العلمية ليكون على غرار «الجمعية البريطانية لتقدم العلوم»، وكان واحدا من مؤسسي هذا المجمع، وشارك بمحاضراته في مؤتمره الأول الذي انعقد في مارس سنة ١٩٣٠، وفي المؤتمرات التالية، وتولي مشرفة رئاسة هذا المجمع في الدورة الثالثة عشرة، أي سنة ١٩٤٢.

وقد ضرب الدكتور مشرفة بسهم وافر في النشاط الاجتماعي البناء، فكان عضوا بارزا في مجلس إدارة مشروع القرى لنشل القرية المصرية من بؤسها الحاضر مع الدكتور على إبراهيم، والأستاذ محمد فريد وجدي، والدكتور محمد مظهر سعيد، والشيخ عبد الوهاب النجار، وكان مشرفة واحدا من الذين أسسوا «جماعة إنقاذ الطفولة المشردة»، وواحدا من الذين أنجحوا بجهودهم البناءة والمتواصلة مشروع القرش لدعم الصناعات المصرية، وأقاموا مصنع الطرابيش.

أما دوره في اتحاد الجامعة فدور ضخم، إذ شارك في تأسيس هذا الاتحاد، ثم عمل على إرساء تقاليده وتنشيطه، وظل عضوا بارزا في هذا الاتحاد إلى أن اختير وكيلا للاتحاد، ثم تولى الرئاسة فحظي الاتحاد بإدارة مشرفة للجلسات على منوال من الديمقراطية الحقة حين كانت الديمقراطية في مصر تفتقر إلى مَنْ يفهم معناها الحقيقي، ولقد جعل مشرفة من الاتحاد برلمانا نموذجيا يضم الصفوة من الأساتذة والطلاب، ويسلك في عمله ونقاشه المسلك السوي، وعود مشرفة الأعضاء الالتزام بجدول الأعمال، وضرب لهم المثل في طريقة عرض المشروعات ومناقشتها، فكان يعطي مؤيدي الرأي الفرصة للإدلاء بآرائهم، ثم يعطي المعارضة حقها، ثم يستخلص الأصوات استخلاص الشعرة من العجين كما تقول العامة، ولم يكن مشرفة ليفرق في إعطائه الكلمة بين طالب وأستاذ، وإنما كان يخضع في ذلك للأسبقية في طلب الكلمة!

وكان الاتحاد ينظم كثيرا من المناظرات في رحاب الجامعة، وقد شارك مشرفة في هذه المناظرات فناظر الدكتور طه حسين، والدكتور أحمد أمين، والأستاذ محمد توفيق دياب، والأستاذ عباس العقاد، وحدثنا الذين شاهدوا هذه المناظرات فقالوا: حدث ولا حرج عن بديهة مشرفة الشرعية، ومعارضة الشديدة، ودليله الواضح، وحجته القوية.

ظل مشرفة يعمل ما لا يلق عن ثلاثة أرباع اليوم، وكان كثيرا ما يكتفي من النوم بثلاث ساعات: ساعة في العصر بين الرابعة والخامسة يقوم بعدها فيتناول الشاي مع أسرته، وساعتين بعد الفجر من الخامسة إلى السابعة، أو من السادسة إلى الثامنة صباحا، وكان المحيطون به يشفقون عليه من هذا الكفاح الذي لا يستريح معه، فكان يعبث بشعورهم معتقدا أنه إن فعل فقد تقاعس، والتقاعس لا يليق بسيرة العلماء الذين كان يري أن عليهم واجبا نحو الإنسانية،

ورسالة لا ينبغي أن يتخلوا عنها طلبا للراحة، وقد ظل مشرفة محتفظا بصحته وعافيته في كامل قواها حتى سنة ١٩٤٧ حين بدأ المرض يعرف طريقه إلى جسده، وسافر إلى أوروبا للعلاج أكثر من مرة، وكانت معاناته من أعصابه ومن ارتفاع ضغط الدم ومن الكبد، وقد توالت مضايقات السراي لمشرفة في هذه الفترة (في مسألة سفره إلى أمريكا، ثم عند تجاهله في التعيين في وظيفة مدير الجامعة، ثم في تعيين وكيل للجامعة، ولم تكن مدة مشرفة في هذا المنصب قد انتهت)، فكانت هذه المضايقات من أكثر العوامل التي زادت من سوء حالته الصحية إلى أبعد الحدود، على أنه لم يمت على سرير المرض، وإنما كان قد أبلّ لتوه من نوبة مرضية حلت به قبل موته بفترة وجيزة!

ويجمل بنا هنا أن نبين وجه الحق في مسألة كثيرا ما تثار بصوت خافت يقول: إن مشرفة مات مسموما، والحق أن مشرفة لم يمت كذلك وإنما مات في بيته وبين أهله، وقيل إنه مات بالإشعاع، والحق أنه لم يمت بالإشعاع، وإنما مات لأنه توهج أكثر مما يجب فاستنفد ما في مصباحه من زيت، وهو التعبير الجميل الذي استعمله الأستاذ محمد زكي عبد القادر.

وقد عاش الدكتور مشرفة غنيا في كل نواحي حياته، وكان غنيا عن المال لا غنيا بالمال! وقد أنعم الله على مشرفة بحياة عائلية سعيدة، فزوجته زوجة صالحة كان له منها ذكور وإناث، وقد عقد الدكتور مشرفة على زوجته السيدة دولت بنت حسن باشا زايد يوم ٣ يناير سنة ١٩٣٢، ودخل بها يوم ٢٠ يونيو من العام نفسه على متن الباخرة التي أقلته إلى أوروبا حيث حضر في ذلك الصيف مؤتمر الرياضيات العالمي الذي انعقد في زيورخ، وأنجب الدكتور مشرفة ابنين ثم ابنتين، ثم مضى إلى لقاء ربه وخلف ثلاث من الأربعة، إذ سبقه الثاني «منير» إلى الرفيق الأعلى بعد تسعة شهور من ميلاده يوم ٨ مارس ١٩٣٩، أما الابن الأول وهو الدكتور مصطفى علي مصطفى مشرفة فقد ولد يوم ٢٨ فبراير ١٩٣٦، وتخرج في كلية الهندسة جامعة القاهرة في ديسمبر سنة ١٩٥٩، واختير لبعثة تصميم وصناعة الأجهزة العلمية بالمركز القومي للبحوث، فحصل على درجة الماجستير بامتياز في أغسطس سنة ١٩٦١، ثم حصل على الدكتوراه في الهندسة الطبية في ديسمبر سنة ١٩٦٤ من جامعة مينسوتا الأمريكية، وعمل حتى وفاته نائباً لرئيس مجلس إدارة شركة في مينسوتا تتولى صناعة أجهزة تنظيم ضربات القلب.

أما المغفور لها السيدة نادية مشرفة فقد حصلت على ليسانس اللغة الإنجليزية من كلية الآداب بجامعة القاهرة في العشرين من عمرها بعد زواجها، وأما الدكتورة سلوي مشرفة فقد حصلت على بكالوريوس الكيمياء من كلية علوم القاهرة، وعملت بالمركز القومي للبحوث.

تمسك الدكتور مشرفة بدينه منذ صغره، وبعد سفره، وكان يحفظ القرآن الكريم والصحيحين ويستشهد بهما في كلامه السائر، وعرف عنه مواظبته على أداء فروض الدين، وكان يحتفظ في جيبه بمصحف صغير على الدوام، ولم يحدث أن كتب رسالة في حياته من دون أن يبدأها بـ «بسم الله الرحمن الرحيم»، وكان يؤتي الزكاة مضاعفة ما استطاع، وفي الخفاء حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، فلما مات جاءت مجموعة من الطلبة الصوماليون يواسون أسرته، وهم يبكون على مشرفة وعلى مستقبلهم الذي ظنوه سيضيع بوفاة عائلهم الذي تكفل بنفقات تعليمهم من دون أن يعلم أحد عن ذلك شيئا، ولم يكن هذا التدين بغريب عن مشرفة الذي نشأ في دمياط نشأة صالحة في بيئة عمها التدين منذ زمن بعيد، ولم يكن هذا التدين غريبا عن مشرفة وهو العالم الذي تعمق العلوم ووقف على أسرار الكون وخلق الله.



أحس مشرفة بإحساس المؤمن الحق بالدين من جل نواحيه، فلم يقف تدينه عند حد قيامه بفروضه نحو ربه فحسب، بل كان حريصا على أن ينبه إلى تنشيط العنصر الديني في شخصيتنا القومية، وكان يحض أقرانه على وضع روايات أساسها تاريخ النبي صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الراشدين، والحوادث الإسلامية، بدلا من الجريان في فلك الغربيين حتى في تأليف الروايات!

وكانت ثقافته الدينية مثلا فريدا للثقافة الدينية، لا أقول عند العلماء الذين تستهويهم الثقافات الدينية، ولكن عند علماء الدين أنفسهم، فقد حفظ مشرفة الكتب السماوية الثلاثة، واستطاع أن يدرس الديانات السماوية دراسة مقارنة، وكان عقله جاهزا في كل حين لاستحضار الصورة الكاملة للمفاهيم الدينية المختلفة في أي قضية من القضايا، ولم يكن مشرفة يبهر علماء الأديان بثقافته تلك فحسب، وإنما كان يناظرهم ويقارعهم الحجة وينتصر عليهم في كثير من الأحيان.

ولعل أروع ما في إيمانه، وأعمق ما في تدينه هو التفاته إلى ما يفوت النابهين والناجحين والنابغين ممن هم أقل منه شأن وشأنا حين يذهبون يبغون بنجاحهم الجاه والشهرة والذكر الحسن، ثم يذهبون إلى ربهم يوم الدين وقد خلا وفاضهم من نية خالصة سبقوا بها أعمالهم.

والذين يتتبعون مشرفة في حياته كلها يجدون في نفوسهم إحساسا قويا بأن مشرفة عمل ودرس وسعي وجاهد وقرأ وبحث وكشف وكتب وحاضر ابتغاء مرضاة الله، على أن الأمر في مثل هذه النية لا يقف عند الإحساس الذي يجده المتتبعون، وإنما حفظ لنا الدهر عبارة في رسالة كتبها مشرفة إلى صديق لوالده يقول فيها :أما وقد تطورت في طور جديد من أطوار حياتي أسأل الله أن يجعله سبيلا إلى تقواه، ومعينا على طاعته، ومقربا من جنة رضوانه، فاللهم قربه من جنة رضوانك.

وكان مشرفة وطنيا من الطراز الأول، ذلك الطراز الإيجابي المتفهم لطبائع الأشياء، والطموح إلى عظائم الأمور، وليس هناك من شك في الدافع الوطني في كل ما قام به مشرفة من جهد في سبيل خدمة بلاده في شتي الميادين التي استطاع أن يتسلم دفة القيادة فيها، وفي مختلف المجالات التي أسهم فيها بقلمه أو عقله أو يده أو لسانه، ولم تكن وطنيته كل ذلك فحسب، فقد حباه الله بنوع حاد من الكرامة الوطنية التي دفعته في يوم من الأيام إلى طرد أستاذ أجنبي من كلية العلوم بسبب حماقة ارتكبها في حق مصر في أثناء حديث من الأحاديث العابرة، وكان مشرفة لا يكف عن إظهار عدائه للمستعمر الإنجليزي منددا به في كل حين، وذلك على الرغم من الرابطة العلمية القوية التي كانت بين مشرفة والبيئة العلمية البريطانية.

وطالما نادي الدكتور مشرفة بضرورة عناية البلاد العربية بالعلم، وكان لا يكف عن الدعوة إلى توجيه الرأي العام في البلاد العربية صوب الفكرة العلمية، ولم يكن يقصد بتلك الفكرة العلمية إلا أن نفكر نحن والعرب بعقلية العلم التي تواجه الحقائق، وتعني بالجوهر دون العرض، وتطلب اللب لا القشور.

وكان يدعو إلى العناية بتمجيد السلف من علماء العرب وباحثيهم، حتى يكون ذلك حافزا للاقتداء بهم وتتبع

خطاهم واستكمال مسيرتهم، وكان يري أن الوسيلة المثلي لتحقيق هذا الهدف هي إقامة اجتماعات تخليدية في أرجاء الوطن العربي على نحو ما فعلت الجمعية المصرية للعلوم الرياضية والطبيعية، التي كان مشرفة يرأسها، في الاحتفال بذكري الحسن بن الهيثم.

وبالإضافة إلى هذا كان مشرفة من أوائل الداعين إلى إقامة مؤتمرات علمية عربية يتدارس العلماء فيها المسائل العلمية المختلفة، ومن ثم تصبح هذه المؤتمرات بمثابة برلمان علمي لتبادل الرأي في القديم والحديث، وكان يؤمل أن ينشأ عن هذه المؤتمرات تنظيم دراسات عربية في شتي المجالات بصفة دائمة.

وكان يشير دائما إلى ضرورة العناية بالمخطوطات العربية القديمة التي وضعها العرب ثم نقل عنها الإفرنج علومهم كمخطوطات الخوارزمي وأبي كامل في الجبر والحساب، وابن الهيثم في الطبيعيات، وجابر بن حيان في الكيمياء، والتوزجاني والبيروني في الفلك، وابن البيطار في النبات، وكان يقول إن هذه المخطوطات محفوظة في مكتبات ومتاحف متفرقة في مشارق الأرض ومغاربها، ويعرف عنها الإفرنج أكثر مما نعرف، ويقومون بترجمتها وشرحها والتعليق عليها، وينشرون هذا كله بلغات أجنبية في مجالاتهم العلمية، وما أجدرنا بأن نكون نحن القائمين بذلك، وقد ضرب ـ على عادته ـ المثل في هذا الشأن فقام بالاشتراك مع الدكتور محمد مرسي أحمد بنشر كتاب الخوارزمي في الجبر والمقابلة على أحسن ما يكون القيام بمثل هذا العمل.

وعلى الجانب الآخر كان مشرفة يتمني للوظائف العامة أن يتولاها أساتذة الجامعات، ولم يكن من أنصار الرأي القائل بأنه يجب على أساتذة الجامعات أن يترفعوا عن مثل هذه الوظائف، وكان يقول في الرد على ذلك: كيف يلام أساتذة الجامعة وهم صفوة المتعلمين في الأمة إذا طلبوا ذلك الجاه لكي يسمع صوتهم فلا يظلوا بعيدين عن تيارات الحياة في الأمة، ولعل لهذا الرأي صدي قويا عند مشرفة عندما يتحدث عن أهمية العلم لصاحب المال فيقول: فالمال إذا اقترن بالعلم سما بصاحبه إلى سماء الواجب، وأحاطه بقدسية الضمير، وتحولت حريته في استخدامه من حرية الجاهل إلى حرية العالم.. وشتان».



وكان مشرفة موضع صداقة كثير من الساسة والعلماء والأدباء والفنانين ورجال المجتمع في عصره، يجدون فيه الرجل الذي يستطيع أن يشارك بعقله وفكره في كل أمر مشاركة فعالة لا مشاركة المجاملة، ويجدون في تصرفاته النفس في سموها، والعقل في صفائه، والضمير في نقائه، والفكر في ألمعيته، والإنسانية كما أرادها الله، ويجدون في صالونه أنفسهم، وقد أتاح بترفعه عن الأحزاب فرصة لأصدقائه من رجال الحزبية يترفعون بها عن الصغائر التي كانت تبعدهم عن بعضهم إذا ما كانوا بعيدين عن صالون مشرفة.

كان مشرفة صديقا لمصطفى النحاس، ومكرم عبيد، وأحمد ماهر، ومحمود فهمي النقراشي، وعلى ماهر، وأحمد لطفي السيد، وعلى إبراهيم، وطه حسين، وأحمد أمين، وأمين الخولي، وتوفيق الحكيم، وإسماعيل القباني، وأحمد رياض تركي، ومحمد عبد الوهاب مع حفظ ألقابهم جميعا.

كان يتمنى أن يجد في العربية مؤلفا له المقدرة على تخليد شخصيات الطبقة المتوسطة في عصره على نحو ما فعله تشارلز ديكنز في عصر الملكة فيكتوريا، فلما قرأ كتاب ›عودة الروح‹ لتوفيق الحكيم عاودته ذكرى هذا الأمل فسأل نفسه: هل استجيب الدعاء.

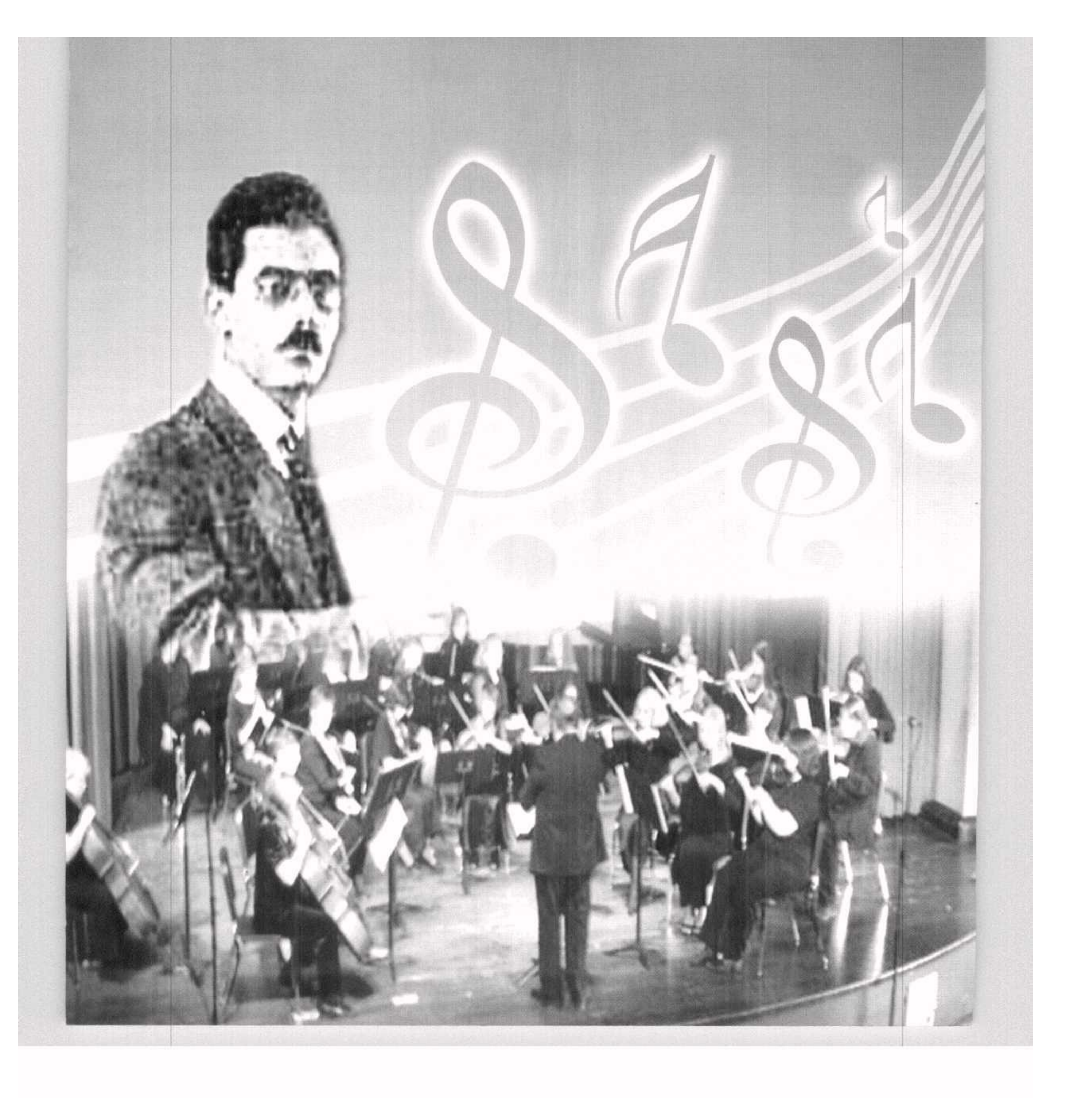
كان من عادته أن يسافر في الصيف من كل عام إلى أوروبا حيث يلتقي بزملائه وأساتذته من علماء بريطانيا، أو الذين وفدوا مثله لقضاء الصيف فيها، وكان لقاؤه بأينشتين في واحدة من هذه الزيارات، وكانت مدة الصيف هذه فرصة لمشرفة لمتابعة كل جديد في تخصصه العلمي أولا بأول، ومناقشته والإدلاء بدلوه في البحوث المتقدمة،وبالإضافة إلى ذلك فإنه كان يستقدم الأساتذة الزائرين لكليته ويتفق معهم على برنامج زياراتهم لمصر، والموضوعات التي سيحاضرون فيها، كما كانت فرصة لمشرفة ليمثل مصر في المؤتمرات الدولية، سواء في علوم الرياضة أو الفلك أو الطبيعة أو تاريخ العلوم، وقد مثل مصر في المؤتمر الأول لتاريخ العلوم الذي عقد في لندن، وفي المؤتمر العالمي للرياضيات الذي عقد بزيورخ في سبتمبر ١٩٣٢، وشارك في مؤتمر الميكانيكا التطبيقية الذي قيم في باريس في سبتمبر ١٩٤٦، وفي مؤتمر الاتحاد الدولي الفلكي الذي أقيم في زيورخ في أغسطس ١٩٤٨، وفي مؤتمر الاتحاد الدولي لعلم

قياس الأرض وعلم طبيعتها الذي أقيم في أوسلو في أغسطس سنة ١٩٤٨ عقب انتهاء المؤتمر الفلكي في زيورخ مباشرة.

وقد وهب الله الدكتور مشرفة حاسة فنية أصيلة، وذوقا جماليا رفيعا، وبرزت مواهبه منذ كان تلميذا صغيرا، وأنشئت فرقة تمثيلية من طلبة دمياط فانضم إليها مشرفة وقام بأداء دور البطولة فيما قدمته. أما ميوله الموسيقية فقد ظل على حبه لها طيلة حياته، وكان ميالا إلى الموسيقي الغربية الراقية، وقد حرص على أن ينقل المتعة بهذه الموسيقي إلى أبناء وطنه عن طريق التعريب ،وقد ترجم بعض الأشعار الغربية بلغة عربية في صورة شعر جميل، وقد جمع إلى حبه للموسيقي علمه بها وموهبته في العزف على البيانو، وقد درس مؤلفات بيتهوفن، وفاجنر، وشوبرت، ومندلسون من أعلام الموسيقي، وكان مغرما بموسيقي جلبرت وسلفن بوجه خاص، كما كان محبا لموسيقانا الشرقية القديمة، ومعجبا بالفنان محمد عبد الوهاب وجهده في تطويرها.

وقد اشترك على مشرفة في سنة ١٩٤٢ في تإليف الجمعية المصرية لهواة الموسيقي عملا على تذليل الصعوبات التي تحول دون استخدام النغمات العربية في التأليف الموسيقي الحديث، وعلى النهوض بالموسيقى العربية إلى المستوي الذي يكسبها صفة عالمية، وانتخب مشرفة رئيسا لهذه الجمعية، ومحمد زكي على باشا وكيلا، وحسن أحمد رشيد أمينا للصندوق، والدكتور وديع فرج سكرتيرا، وإسماعيل رأفت وعلى بدوي ومحمود الحفني ويوسف جريس وأبو بكر خيرت أعضاء في مجلس الإدارة.

ويروي أن مشرفة كان ذات يوم في أوبرا باريس يجلس في الفصول الأولي والفرقة تعزف، ثم فوجئ الناس به ينتقض من مكانه كأنما أصابه مس، ثم جلس مشرفة واستمرت الفرقة تعزف والناس ينصتون فلما انتهت الأوبرا نزل المايسترو من فوق المسرح إلى الصالة حيث يجلس مشرفة فصافحه واعتذر له، عندئذ فهم الناس أن المس الذي أصاب مشرفة فانتفض له لم يكن إلا خطأ صغيرا وقع من المايسترو في أثناء العزف.



وكان الدكتور مشرفة يمارس رياضة التنس، وكان عضوا في نادي مصر الجديدة الرياضي، وعضوا في نادي الجزيرة الرياضي على مضض من تولي الإنجليز أمره، وعضوا في اللجنة الأهلية للرياضة البدنية، وكان يعمل على تشجيع الرياضة والروح الرياضية في الجامعة، وكانت له كئوس تتباري الفرق الرياضية على الفوز بها.

في بداية سنة ١٩٥٠ أجريت الانتخابات النيابية وفاز حزب الوفد المصري بالأغلبية، وكلف الملك النحاس باشا بتشكيل الوزارة، وأعلن عن اختيار الدكتور طه حسين وزيرا للمعارف، وتحدث مشرفة إلى طه حسين بالهاتف لدي سماعه نبأ اختياره وزيرا فعبر له عن حيرته أيهنئه أم يعزيه؟ وجلس مشرفة مع أفراد الأسرة يحادثهم حديثا فيه الإجادة واللباقة والكياسة والإفادة والإمتاع ثم أوي إلى حجرته لينام ، ودخل عليه ابنه حجرة نومه ليراه قبل النوم، وكان غطاء نومه قد تدلي إلى الأرض فسأل مشرفة ابنه عن سبب ذلك فأجاب: لأنه ثقيل، فانتهز مشرفة الفرصة لكي يشرح لابنه نظرية الجاذبية في الحدود التي يعيها فهمه، ثم بات مشرفة من ليلته عازما على أن يحضر حفل افتتاح البرلمان إذا ما أصبح الصباح، فلما أصبح يوم الاثنين ٢٧ ربيع الأول سنة ١٣٦٩ هجرية الموافق السادس عشر من يناير سنة ١٩٥٠ طلب الدكتور علي مصطفى مشرفة الشاي فارتشف منه ما شاء الله أن يرتشف، ثم جاء ملك من عند الله فصعد بروحه إلى بارئها، وترك لأهل الأرض من مشرفة جسدا بلا روح، وذكري بعد عين، وانتشر خبر مشرفة بين الناس فكان كبار القوم يخرجون من البرلمان إلى بيت مشرفة، فلما اجتمعوا قرروا تأجيل تشييع الجنازة إلى صباح الغد الثلاثاء ١٧ يناير، فلما كان ضحي الثلاثاء خرجت جامعة القاهرة عن بكرة أبيها أساتذة وطلابا وعاملين، وقد اتشحوا جميعا بالسواد لأول مرة في تاريخ الجامعة، وخرجت جماهير الشعب المصري من كل حدب وصوب يشيعون جثمان رجل من القلائل.

الباب الثاني

مشرفة يتحدث عن نفسه في يومياته

كتب مشرفة مذكرات يومية عام ١٩١٨ حين كان شابا فيما بين التاسعة عشرة من عمره والعشرين، ولكنه كان شاباً متقداً بالحماسة، مفعماً بالذكاء، وقوة الملاحظة، وهو ينتقل من وطنه إلى وطن آخر من أجل العلم، فيحرص شأنه في هذا شأن الطموحين والنابهين وأقوياء الملاحظة على أن يدرك أسباب التفوق عند هذا الوطن المتقدم، وهو يسجل بقلم ناقد ما يراه، كما أنه ينظر بعين ناقدة أيضا، ولا يخلو تفكيره من طابع تفكير الشباب وبخاصة أنه لم يحتك «بالآخر» احتكاكا حقيقيا قبل بعثته، فقد نشأ في بيئة يغلب عليها الطابع الواحد أو الأحادي في الفكر، والسلوك والعقيدة، ومن ثم فإنه صادف في بريطانيا مجتمعا جديدا عليه، وبيئة جديدة عليه، وشعبا جديدا عليه، وسلوكا جديدا عليه، وهو لا يستسلم لكل هذا بسهوله ولكنه يناقش، ويفند، ويميز، ويفرز، ويقرر، وهو مشغول بدراسته، ومشغول بثقافته، ومشغول بنفسه، ومشغول بقلبه في بعض الأحيان، ولكنه مع هذا كله مشغول بمواطنيه، وأهله، ووطنه، ومسكون بهم، وحريص على أن يسجل لهم ولنفسه تجربته على ورق كفيل بتخليدما رآه.

ومن عجب أن مشرفة لم ينتبه في حياته [القصيرة العريضة] إلى أهمية الحفاظ على هذه اليوميات بطريقة تكفل له أو لغيره الاطلاع عليها، فضلا عن قراءتها أو نشرها في فترات تالية من الزمن، وربما أنه فعل هذا، ولكنه لم يطلع على هذا مَنْ كانوا أولي بالحفاظ على مثل هذه اليوميات، وبإيفاءها حقها.


يومياتي

ومما نستطيع الجزم به أن نشير إلى أن الدكتور عطية مصطفى مشرفة شقيق عالمنا الكبير قد اطلع على بعض هذه اليوميات قبل أن يضع كتابه التذكاري عن شقيقه، ففي هذا الكتاب إشارات سريعة إلى بعض ما في هذه اليوميات.
وسنري في اليوميات كيف كان مشرفة وجيله لا يزالون في المرحلة التي لم تتبلور فيها الوطنية المصرية على نحو ما حدث بعد عام واحد في ثورة ١٩١٩ الكبري. فقد كان مشرفة في ذلك الوقت لا يزال على الولاء لدولة الخلافة العثمانية في استانبول، باعتبارها تمثل جماعة المسلمين، ولم تكن هذه الدولة في ذلك الوقت قد زالت، وإن كانت على نحو ما نعرف من التاريخ قد أصبحت بالفعل في طريقها إلى الزوال، وربما أننا من دون يوميات كهذه لا ندرك قيمة الجهد العظيم الذي بذله سعد زغلول ورفاقه من قادة ثورة ١٩١٩.
وقد وجدت هذه اليوميات المخطوطة في تراث الدكتور علي مصطفى مشرفة، وجدتها ابنتاه السيدة نادية والدكتورة سلوى وتفضلتا على بإلحاح مهذب ومحبب أن أتولى تحقيقها وتقديمها، وهو شرف جليل.
وقد سجل مشرفة هذه اليوميات في أجندة إنجليزية من النوع الذي نعرفه الآن حيث لكل يوم من أيام السنة صفحة مخصصة لهذا اليوم، مع الإشارة فيها بين قوسين إلى ترتيب هذا اليوم بين أيام السنة، ثم عدد الأيام التي لا تزال باقية من السنة. وتبدأ هذه اليوميات بيوم ١ يناير ١٩١٨، وتنتهي اليوميات المكتوبة باللغة العربية عند يوم ١٠ يوليو ١٩١٨، وبعد هذا نجد يوميات متناثرة في بعض الأيام على هيئة المفكرة التي يسجل فيها صاحبها ما فعله أو ما ينتوي فعله عند ساعات معينة من اليوم.
وقد مضت اليوميات تشمل كل الأيام منذ ١ يناير وحتى الأحد ٣ مارس بانتظام شديد، وإن كان الدكتور مشرفة في أيام الآحاد الموافقة ٢٧ يناير و٣ فبراير قد اكتفي بكتابة الآية القرآنية، وفي الأحد ١٧ فبراير اكتفي بسطر واحد، ويبدو أن السبب في هذا أنه شغل بلقاء نهاية الأسبوع، وكان ـ كما تدلنا اليوميات ـ قد بدأ يلتقي بالآنسة ماري ديفي في عطلات نهاية الأسابيع السابقة.
ولكننا نلاحظ أنه يكرر نفس الشيء يوم الثلاثاء ١٩ فبراير حيث اكتفي بذكر الآية القرآنية. وقد عاد يوم الأحد ٣

مارس فاكتفي بكتابة الآيات القرآنية، أما ما بين الاثنين ٤ مارس وحتى الجمعة ٨ مارس فلم يسجل فيها يوميات. وتعود اليوميات متقطعة في ٩ مارس، ثم تقفز إلى ١٢ مارس، وتستمر منتظمة من ١٢ مارس حتى ٢٥ مارس، وتعود لتقفز إلى ٣ أبريل وتستمر حتى ٦ أبريل، ثم تعود لتقفز إلى ١٢ أبريل ثم إلى ١٦ أبريل واليوم التالي له ١٧ أبريل، ثم تعود لتقفز إلى الأحد ٢١ أبريل واليوم التالي له أي ٢٢ أبريل، ثم تعود لتقفز إلى ٤ مايو ثم ٦ مايو ثم ٩ مايو ثم ١٢ مايو ثم ١٥ مايو حيث يعود إلى الانتظام حتى ٢١ مايو، ثم يقفز إلى ٢٥ مايو و٢٦ مايو، ثم إلى ١ يونيو ثم إلى ٨ يونيو ثم إلى ١٥ يونيو، وكل هذه الأيام الثلاثة أيام سبت، أي أنه يبدو وكأنه أصبح يكتب يومياته بطريقة أسبوعية، لكنه يعود إلى الكتابة يوم الأربعاء ١٩ يونيو ثم السبت ٢٢ يونيو ثم الأحد ٢٣ يونيو، ثم تتوقف اليوميات قرابة أسبوعين يعود بعدها إلى كتابة يومياته الثلاثاء ٩ يوليو ثم الأربعاء ١٠ يوليو الموافق لعيد الفطر المبارك، وهي يوميات طويلة بالمقارنة بكل ما قبلها.

يرد في هذه اليوميات ذكر كل من الغمراوي والنفراوي وأحمد عبد السلام الكرداني، ومن المهم أن نبدأ بتعريف القراء بهؤلاء الأقطاب الثلاثة:

أما الغمراوي - وهو أكثر الشخصيات ظهوراً - فهو الدكتور محمد أحمد الغمراوي، وقد ولد في زفتي، ودرس بالخديوية الثانوية ثم في مدرسة المعلمين العليا وتخرج فيها (١٩١٤) أي في دفعة الكرداني وأحمد زكي، وقد شارك عند تخرجه في تأسيس لجنة التأليف والترجمة والنشر، رشح للبعثة إلى انجلترا وتأجل سفره بسبب الحرب فعمل مدرسا بالمدارس الثانوية، وسافر (١٩١٦) وهناك عرف مولاي محمد على أول من ترجم معاني القرآن الكريم، ويكون صاحب أول ترجمة لمعاني القرآن، وقد شاركه الغمراوي في مراجعتها، عمل بعد عودته من البعثة في التدريس وفي معامل وزارة الصحة، ثم أستاذا للكيمياء بكلية الصيدلة حتى أحيل للتقاعد ثم دعي إلى السعودية (١٩٦٠) حيث أسس كلية الصيدلة في جامعة الرياض وتولى عمادتها حتى ١٩٦٣.

عرف الدكتور الغمراوي باهتمامه الشديد بالبحث في علوم القرآن والدين، وكان ميالا إلى التعمق في تفسير الآيات الكونية وإثبات تطابق المعاني الواردة في تلك الآيات مع أحدث الحقائق العلمية التي لم تكتشف إلا في العصر الحديث، وكان حريصا على إثبات أن بعض آيات القرآن تنبأت بكثير من الظواهر الكونية التي ظلت مجهولة حتى عصرنا هذا.

من مؤلفاته «الإسلام في عصر العلم» وقد جمعه بعد وفاته زميله الدكتور أحمد عبد السلام الكرداني «في سنن الله الكونية» و«الطريقة المثلى للمحافظة على كرامة الإسلام» و«النقد التحليلي لكتاب الأدب الجاهلي»، وهو ما ردّ به مبكرا على طه حسين.

كتب في كثير من المجلات الإسلامية كالأزهر، ولواء الإسلام، ومقالاته في مجلة الثقافة تعطينا فكرة عن اتجاهاته وتفكيره.

ينتمي أحمد عبد السلام الكرداني إلى مدينة دمياط، وقد درس فيها ثم في القاهرة ثم تخرج في مدرسة المعلمين العليا (١٩١٤) مع أحمد زكي والغمراوي ومحمد بدران، واشترك في تأسيس لجنة التأليف والترجمة والنشر (١٩١٤)، وابتعث إلى انجلترا وعاد ليعمل بعض الوقت في كلية الهندسة، ثم تولى عدة مناصب مهمة في وزارة المعارف، حتى أصبح وكيلا للوزارة، وقد اختلف مع الدكتور طه حسين وترك منصبه. وهو مرب كبير ذو آثار واضحة في تلاميذه، كتب قصة حياته ونشرتها دار الهلال وقدم لها تلميذه الدكتور محمد داود التنير، شارك في مجلة الثقافة منذ عددها الأول، وهو يميل في كتاباته إلى الدقة العلمية مع ثقافة واسعة وفكر متزن. وقد تناولنا مذكراته بالمدرسة في الباب الرابع في كتابنا «تكوين العقل العربي.. مذكرات المفكرين التربويين».

ويظهر من اليوميات التي سجلها مشرفة في ٢٦ يناير ١٩١٨ أن الغمراوي وبعض زملائه كانوا قد سبقوا مشرفة إلى بريطانيا، ولكن الغمراوي لم يكن قد بدأ في تأمله ودراسته لبريطانيا ونقده للحياة فيها إلا مع وصول مشرفة، ونحن نري مشرفة يحادث الغمراوي فيقول:



›في طريقي والغمراوي إلى مستر صَلي قلت: ما كنتم تفعلون ياغمراوي في السنة الماضية، فكأني بكل جديد على جديداً عليك، قال: لقد لبثت العام الماضي أنظر إلى انجلترا نظرتي إلى أرض كلها هوات وسط ليل بهيم فأنا أتحسس سبيلي. قال: وليس من يستطيع دحض ما أقول، وزدتُ: لكنك تشهد أننا نعمل هذا العام نشيطين (سدد الله خطانا)‹.

كان مشرفة منذ بدأ بعثته حريصاً على أن يكون مندمجا بقدر كبير في المجتمع البريطاني، وهو يشير إلى تحفظه على زميله الغمراوي لانعزاله عن الناس، ومع هذا فإنه في يومياته يعبر عن الاندهاش حين وجد رجلا له ›سليقة سرعة محادثة الآخرين‹ وهو يقول:

›وجلس أمامي رجل يبلغ الأربعين أو الخمسين فبدأني بالحديث عن الطقس، ثم جعل يذكر سوء حال الطعام في انجلترا، والذي استغربت له سرعته إلى مفاتحتي بالحديث وكأنها سليقته، إذ لاحظتها مع أول جلوس له‹.

تحفل يوميات مشرفة بالإشارة إلى أحاديث دارت بينه وبين إنجليزيين وأيرلنديين حول المرأة والتدخين وغيرها من الأمور.

وتظهر اليوميات أن مشرفة كان معنيا إلى أبعد الحدود بإدراك تفصيلات التقدم التكنولوجي والصناعي وهو يحاول أن يسجل لنفسه فكرة عامة عن المكونات الأساسية في المعالم الحضارية في بريطانيا .

ويمكننا أن نرصد بعض ملامح يوميات مشرفة فيما يلي:

كان الدكتور مشرفه حريصا على أن يبدأ يومياته في كل يوم بآية أو مجموعة من الآيات من القرآن الكريم، وكثيرا ما تكون الآية أو الآيات التي يبدأ بها ذات علاقة بانطباعاته التي يسجلها عن ذلك اليوم، وفي بعض الأحيان فإنها تمثل له الحل للمشكل الذي صادفه، وهو في غالب الأحوال مشكل فكري.

كان الدكتور مشرفة يستعرض تاريخ ما يراه من واقع اللوحات ›التذكارية‹ المثبتة عليه، أو لوحات المهندسين المنفذين، أو من واقع الإجابات التي يحصل عليها ممن يسألهم من أهل المكان، وكان يحرص على تسجيل التاريخ بالأرقام لا على سبيل التقريب.

كانت حاسة الدكتور مشرفة العملية تدفعه إلى إثبات وصفه مدعوما بالرقم، فهو لا يذكر أن هذا الشيء أو الأثر قديم وإنما يذكر التاريخ، وهو لا يقول عنه إنه كبير وإنما يذكر الحجم أو العدد، وهو ـ على سبيل المثال ـ يذكر تاريخ طبع أول إنجيل، وعدد الكتب التي تحتويها المكتبة.

في بعض الأحيان لا يشير مشرفة إلى موضوع حواره مع مَنْ حاورهم (السبت ٢٣ فبراير ١٩١٨).

يظهر من يوميات مشرفة أنه كان حريصا على الاتصال ببلاده وبأدبها المنشور، وفي يوميات ١ مارس نقل أبياتا من آخر قصيدة حافظ العمرية الشهيرة حسبما نشرتها مجلة ›الأفكار‹ قبل أقل من عشرين يوما.

يسجل الدكتور مشرفة كثيرا من التجارب الجامعية المتقدمة، فهو يكتشف حجرة صغيرة إلى جوار قاعة مجلس الجامعة ويعرف أنها مخصصة لما يعرف الآن بمجالس التأديب، ويبدو من حديثه أن الطلاب يعاقبون فيها على ما يقع تحت طائلة القانون بدلا من وقوفهم في المحاكم المدنية

ويسجل الدكتور مشرفة بعض المشاهدات الجامعية الطريفة ذاكرا أسبابها، وذلك دون انبهار أو اندهاش، وهو يذكر كيف أن الكتب (في المكتبة) كانت توثق إلى المناضد بسلاسل من حديد!

يصل مشرفة في كثير من الأحيان إلى صياغة حِكَمْ خاصة به من واقع تجاربه الشخصية، ويسجل هذه الحكم في يومياته!! من ذلك قوله:

›لا تطلق لنفسك العنان إذا ماشيت أصحابك فتندم، فإنك أحوج إلى الحكمة في معاملتهم منك إليها في معاملة معارفك‹.

١ ـ الوعي الفكري

نقرأ في المذكرات بعض فقرات من حوار دار بين مشرفة وزميله الغمراوي عن الحجاج بن يوسف الثقفي، وفي هذا

الحوار يظهر وعي مشرفة الكامل والمبكر لأدب الاختلاف في الإسلام، وهو لا يقبل السلوك الذي يستحل لعن بعض المسلمين وتبرير هذا بما اقترفوه، كما أنه واع لحقيقة أن التاريخ الذي نقل إلينا قد كتب لأغراض سياسية جعلته ينحاز ضد بعض الحكام:

«اشتدت المناقشة بيني وبين الغمراوي اليوم في منزله بينما نحن نقرأ الكامل [أي كتاب الكامل للمبرد] ورد ذكر خطبة للحجاج بن يوسف الثقفي فقال [أي الغمراوي]: إن هذه الروح ليست روح الحجاج (وكانت الخطبة وعظية)، قلت: لعلها له، قال: كلا، ثم لعن الحجاج فأنكرت عليه لعن مسلم قال: قد قتل الحجاج مسلمين متعمدا فلعنة الله عليه، قلت: ياغمراوي لا تلعن مسلما قبل أن تتبصر، قال: تبصرت، قلت: لا يكفي علمك بالتاريخ ولا أخالك مؤرخا، قال: كلا، ولكنني واثق مما حدث من مقتل فلان وذكر اسم رجل قتله الحجاج، فمازلت أكرر أن لعنة المسلم لا يجوز لاسيما أن الحجاج قد مات وحسابه عند ربه وعلمنا عنه من بطون كتب التاريخ التي قد يزل كاتبوها ولا يقين لقارئها، قال: بل علمي عن الحجاج يقين، ومازال يردد أن القاتل يلعن وأن الحجاج قد أجمع المؤرخون على فجوره، وأن ذلك «متواتر» وأن التواتر كاف لليقين، واستشهد بأن اليقين بالقرآن مبني على التواتر، وافترقنا بعد جدال ساعة لم تثمر إلا نكدا».

كذلك تكشف يوميات الدكتور مشرفة عن وعي فكري ونضج مبكر لهذا العالم الجليل في اتجاه آخر، فهو يعارض أحد زملائه في فكرته القائلة بأن الدين يجب أن يكون واسطة إلى سعادة الدنيا، ويرد عليه بالآيات القرآنية من سورة النور.

كذلك تتجلي في مشرفة عقلية العالم القادر على فهم نصوص القرآن الكريم بفضل ما أدركه من العلم بالطبيعة الكونية، ومن ذلك ما يرويه عن تفسير آية من القرآن الكريم حيث يقول:

«رأي ملفي [مولاي] محمد علي مترجم القرآن في معني قوله تعالى: ﴿نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ أي نميت أقطاب الكفار ورؤساءهم أو ننقص من عدد الكفار ونزيد من المسلمين، ولي في ذلك رأيان أحدهما أن كثيراً من

يابس سطح الكرة ينقص من أطرافه بفعل المياه، وثانيهما أن دوران الأرض ينقصها من أطرافها. قلت: والأطراف هي الجوانب من مرتفع ومنخفض وبرودة الأرض منقصة من أطرافها بما تقلل من متوسط قطرها وتزيد في ثنياتها السطحية».

ويستشهد الدكتور مشرفة بالقرآن على أن طاعة أولي الأمر من غير المسلمين غير واجبة، وهو في هذا الشأن متأثر بنفوره النفسي والعقلي والروحي من سلوك البريطانيين مع المسلمين الهنود الذين ساقوهم سوقاً إلى الحرب، مع أنه لم يكن لهؤلاء في الحرب ناقة ولا جمل!!

ويرتبط بهذا الوعي الفكري ما نلحظه من حرص مشرفة على تسجيل إعجابه بالأعمال العظيمة، وقد كان حفيا بالبحث في أسباب الخلود، فإذا ما رأي صورة منقوشة لأحد الرجال أو تمثالا سأل عنه وعن إنجازه الذي خلده، وهكذا أدرك معرفة التاريخ البريطاني بمعرفة رجاله، كما أدرك معرفة الأعلام من خلال قراءاته في التاريخ.

ويري مشرفة بكل وضوح أن حافظ إبراهيم لم يقدر عمله في القصيدة العمرية حق قدره، ويبدو لي أنا أيضاً أن مشرفة كان مصيبا كل الإصابة في رأيه هذا، وقد أشرت إلى هذا المعني في الطبعة الثانية من كتاب «أدباء التنوير والتاريخ الإسلامي».

٢ ـ الوعي الفني :

نستطيع أن نلحظ بوضوح أن حس مشرفة الفني كان قد نضج وتبلور، ويستوي في هذا إحساسه بالفنون التعبيرية وبالفنون التشكيلية، وهو بالإضافة إلى هذا مدرك تمام الإدراك لأثر الفن في التربية الوجدانية للشعوب، كما أنه بدأ يفكر في توظيف الفن لخدمة الدين على نحو ما رأي البريطانيين يوظفونه، وهو يتحدث في بداية يومياته عن انتوائه العمل على نشر سيرة النبي (صلي الله عليه وسلم) بين المصريين عامة، وعقول النشء بصفة خاصة، ويبدو أن هذه الفكرة قد اعتملت في نفسه وبدأت تنضج مصحوبة بالعمل على توظيف الفن من أجلها، ولهذا فإنه بعد شهرين يعود

إلى هذا الحديث بطريقة أخري في يوميات ١ مارس ١٩١٨، وقد انتبه إلى أن الأمر يتطلب روحا جماعية أو مؤسسية ولا يقف عند حدود جهوده وحده ويقول:

›يا حبذا لو عُمد في مصر إلى استعادة لأيام الإسلام في المؤلفات والروايات التمثيلية والكتب والمدارس بدلا من النسج على منوال الغربيين نسجا أعمي، وهؤلاء المقلدون لا يعرفون ما يقلدونه ولا يفهمونه ويختطفون أعمالهم اختطافا غير حاسبين حسابا لما يكون من تبعتها. وهنا عرض لي أن أرد على أحمد رياض على خطابه رقم ٤٨ [كان مشرفة يرقم خطاباته الصادرة والواردة على حد سواء] الذي طلب إلى فيه إرسال روايات ليعربها، أن أرد عليه فأطلب منه الاشتغال بوضع روايات أساسها تاريخ العرب لا حوادث الإفرنج‹.

وفي موضع سابق من يومياته يجري مشرفة حواراً مع الغمراوي عن التماثيل، وفي موضع ثالث يفكر في تمثيل بعض فصول السيرة النبوية لكنه ينتهي إلى القول بأنه ›لا يصح أن تمثل حياة النبي صلى الله عليه وسلم على المسارح، ولكن يجب علينا نشرها بين الناشئة بما يوافق كل سن‹.

أما فيما يتعلق بالفن التشكيلي نفسه فإننا نري مشرفة وهو يبدي إعجابا عميقا بقدرة الفن على محاكاة الطبيعة، ويظهر هذا من تقديره للتماثيل التي رآها، كما يظهر أيضا من تأمله في قدرة اللوحات الفنية على التعبير عما صورته أو عما هدفت إلى تصويره، ومن الواضح أن مشرفة كان في هذا متأثرا بالفطرة من ناحية، وبذوق ذلك العصر الكلاسيكي الذي لم تكن نزعات التجربة والسريالية والتمرد على الأصول قد نفذت إليه بعد، وهو يفيض في التعبير الدقيق عن أثر بعض اللوحات الفنية في نفسه، ومن ذلك وصفه لإحدي اللوحات في يوميات ٣ يناير حيث يقول:

›ما أدق وأجمل ما رأيت اليوم من صنع **Lighton Bart** صورة عنوانها **Whispers** سنة ١٨٩٥م، تمثل شابا يتهامس مع حبيبته وقد بدا على وجهها حياء يشوبه سرور واستكانة، فما تمالكت إذ نظرت إلى وجهها أن تبسمت لها واهتزت في عواطف كأنما أمامي حقيقة ناطقة.

كذلك تدلنا يوميات مشرفة على مدي ما كان يفتعل في نفسه كنتيجة للفن التعبيري الرفيع، فهو يذكر في يومياته بكل



صراحة أنه انفعل بإحدي أغاني الأوبرا التي شهدها في ٤ فبراير فظل يرددها طيلة عودته:

›ورأيي في الأبرات [الأوبرات] أنها وإن خرجت عن حيز التمثيل الطبعي المعقول إلا أنها ملهي للنفوس ومبعث طرب. وأخذت بنفسي أنشودة حتى [أني] رحت أنشدها طوال الطريق‹.

٣ ـ الوعي السياسي

لم يكن مشرفة قد خالط في بلاده حياة سياسية بالمعني المفهوم قبل البعثة، لكنه كان يري الحركة الوطنية وهي تموج وتفور من أجل تحقيق المطالب الوطنية، وكان يري التنازع على الاستئثار بحكم بلاده وهو متقد بين دولة الخلافة العثمانية وبين بريطانيا من ناحية أخري، وهو على كل الأحوال كان يري في التبعية لدولة الخلافة أمرا طبيعيا، وذلك بحكم عقيدته، وكان في هذا شأن الأغلبية من المصريين فيما قبل قيام ثورة ١٩١٩ التي نبهت المصريين إلى وطنيتهم ووطنهم، ومع هذا فإن مشرفة في تصويره لانطباعاته الوطنية يعبر عن لمحات ذكية في إدراك طبيعة الاستعمار وطبيعة النزاعات الدولية، وهو يبدي على صفحات يومياته كثيرا من الآراء السياسية في أحداث عصره، ومن ذلك استهجانه ثورة الشريف حسين في مكة (يوميات ١٢ يناير ١٩١٨) وثناؤه على انتباه المسلمين الروس إلى أهمية بقاء الأمم متحدة، ووضعهم التعاون الإسلامي نصب أعينهم (يوميات ١٤ يناير ١٩١٨).

كما يتأمل مشرفة في مجريات السياسة الدولية ويصل إلى اقتناع بأن السياسي لا ينجح على الدوام:

›وقلما يفلح أحد هؤلاء السياسيين طوال حياته، بل لم يفلح أحد منهم طوال حياته، فهو إن لم يخنه ذكاؤه خانته الظروف، وإن لم تخنه الظروف خانه الناس والأعداء، أو خانه أصدقاؤه وأخصاؤه‹.

وتحفل يوميات مشرفة أيضا بالحوارات بينه وبين المتشيعين للسياسة البريطانية فيما بعد الحرب العالمية الأولي (يوميات ٢٢ يناير ١٩١٨).

وهو ينتقد ما رآه من روح أنانية في تصرفات المستعمر البريطاني لمصر في أكثر من موضع، ومن هذا ما يرويه عن رأيه

فيما قرأه عن مشروع يستهدف «نجلزة» المحاكم المصرية:

«اليوم أطلعني مستر كيي المحامي الذي يسكن معنا على مقال في مجلة قضائية في موضوع تعديل المحاكم في مصر، ورد فيها أن اللجنة الاستشارية اقترحت جعل اللغة الإنجليزية هي لغة المحاكم والعربية والفرنسية (عند الاقتضاء)، وكانت تتمشي في المقال روح إنجليزية أنانية، قلت: اللهم انصر دينك، وأعل كلمتك، واجعل كلمتك هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلي».

٤ ـ المواطنة (الوعي بسياسات الدولة البريطانية)

لم يكن مشرفة ينظر إلى نفسه على أنه بريطاني، لكنه في الوقت ذاته لم يكن ينظر إلى نفسه على أنه سائح عابر، أو ضيف منعزل عن الحياة في الوطن الذي قدر له أن يبتعث إليه ويعيش حياته فيه، وهو هذا يعيش الحياة البريطانية ويحس بما فيها من سياسة، ومن معاناة، في الوقت الذي يحتفظ فيه لنفسه بأصوله وبغربته عن المجتمع الذي يعيشه، وهو يتأمل الحياة الحزبية التي كانت شيئا جديدا بروح منصفة، وإن كانت لا تخلو من تحكيم العقل بالقدر الذي يمكن إدراكه لعقل شاب لم يجاوز العشرين ولم تكن له تجارب سياسية من قبل.



يتناول مشرفة في يومياته بعض ما جري في محاورات مهمة له مع بعض الداعين إلى نشأة حزب العمال البريطاني (يوميات الأربعاء ٢٣ يناير ١٩١٨)، وهو يوجه انتقادات لاذعة إلى سلوك هؤلاء في عرض آرائهم في يوميات اليوم التالي الخميس ٢٤ يناير ١٩١٨ بعد أن حضر معهم اجتماع مجمع المبعوثين، وهو على الرغم من الانتقاد الحاد لسلوكهم الهمجي يري فيهم بعض المزايا ويقول:

(فإذا به مجمع قد خلا عن كل نظام تمثلت فيه روح الهمجية بأجلي معانيها، وجهر فيه كل بما دار في خلده دون تبصر أو تفكير، ومن الغريب أن هؤلاء «الاشتراكيين» ـ كما يسمون أنفسهم ـ يأملون أن يحكموا الأمة حسب أهوائهم، قلت: بئس سبيل أمة لهؤلاء يد مطلقة فيها) .

وسرعان ما يستدرك مشرفة ليبين الوجه الآخر ويقول:

›على أن القوم لا يخلون من محاسن متجلية فيهم، فهم أحرار النفوس بمعني الكلمة، ويعملون على إصلاح شئون إخوانهم العمال، وقوادهم رجال مفكرون أغلبهم أعضاء في مجلس الأمة يريدون أن يستعملوا سلطانهم في الحكومة في سبيل تحسين حال إخوانهم العمال، لكنهم يتجاوزون ذلك الحد فيريدون أن يكونوا هم سادة الأمة، وأن تسود آراؤهم في الحكومة، وأن يكيفوا العالم نظاماً حسب أهوائهم، قلت [أي لنفسه]: قد أملوا المستحيل‹.

ويصل مشرفة إلى تقرير رأيه الواضح في الانتقاص من قيمة الأغلبية التي تأتي من سياسيين من هذا الطراز غير المتعلم فيقول:

›وأما التصويت والأغلبية فهي طريقة، وإن كانت لا تخلو من المحاسن إلا أن ما يوصل إليه بواسطتها من التقارير [أي القرارات] هو في أغلب الأحايين رأي فرد أو أفراد، وإن وهم البعض أنه رأي الأغلبية لاسيما في أغلبية غير متعلمة كالتي شاهدتها اليوم لا يستطيع أحدهم التفكير وإنما يحكم بآرائه وأهوائه‹.

كذلك نحس في يوميات مشرفة بإحساسه بمعاناة البريطانيين من آثار الحرب .

وتظهر اليوميات إحساس مشرفة وتعبيره عن الأزمات التموينية التي عاني منها البريطانيون بسبب حالة الحرب .

ومع كل هذا لا يغمط مشرفة البريطانيين حقهم في الثناء على ما يستحقون الثناء عليه، وفي يوميات ١ فبراير ١٩١٨ يقول:

›المحاضرة التي سمعتها الليلة من ›كابتن كون‹ تدل على ما يلاقيه هؤلاء القوم من الصعوبات في سبيل الاستكشاف، ولقد عجبت لتضحيتهم أنفسهم‹.

وقبل هذا يشيد مشرفة بسلوك أحد الأساتذة الكبار في يوميات ١٤ يناير ١٩١٨:

(أجمل به خُلقا في الأستاذ ›بارتن‹ اليوم، إذ دخل علينا فصافح كلا منا على حِدَة يدا بيد، إليس هذا الرجل يتخلق بالفضائل الإسلامية من حيث لا يدري. قلت عجبا لمن يأمرهم دينهم بحسن الخلق، وفي نبيهم عليه الصلاة والسلام قدوة كاملة لهم، ثم يبزهم الغربيون في محاسن الخلق).

٥ ـ الحياة العاطفية

تصور هذه اليوميات حياة مشرفة العاطفية تصويرا جيدا، وهو يروي بالتفصيل المشوق ما دار بينه وبين فتاة بريطانية هي ›ماري دفي‹ وينقل بعض ما دار في حوارهما في يوميات ٩ مارس ١٩١٨ وهو حوار يدل على عاطفة جياشة، أما حديثهما في السبت السابق عليه في ٢ مارس ١٩١٨ فينبئ عن تطور العلاقة بينهما في سرعة، والحديثان كفيلان بتبيين ملامح العلاقة إلى حد وافٍ، وبوسع القارئ أن يعود إليهما مباشرة.

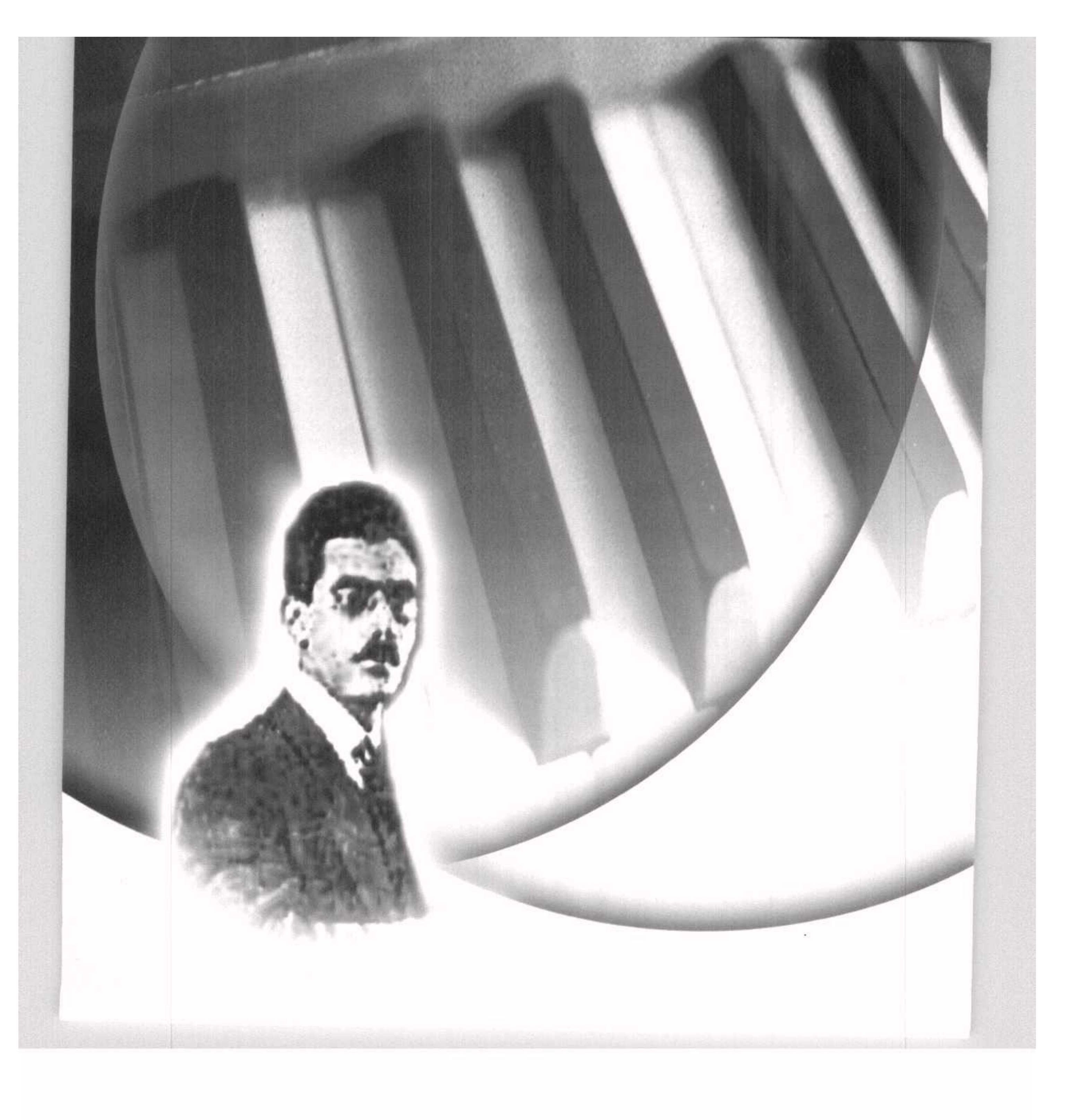
على أن مشرفة يشاور صديقه وزميله الغمراوي في أمر هذه العاطفة الجديدة عليه يوم الخميس ١٤ مارس، في الوقت الذي كان يستشرف فيه حلول موعد اللقاء الآتي، ونري الغمراوي في رأيه أقرب إلى التحفظ والتحوط، وهو يقول: ›حادثت اليوم الغمراوي في أنه يجب علينا معرفة ما يدور في خلد النساء في هذا البلد. قال: نعم، ولكني لا أملك قلبي وأخشي أن أزل وإنما أفعل ذلك قبيل رحيلي إن شاء الله تعالى‹.

وسرعان ما نجد مشرفة في اليوم التالي يعترف بما بدأ يشعر به من جاذبية وجوده مع ›ماري دفي‹ وهو يعبر عن هذا المعني في صدق وصراحة فيقول:

›وبعد أن أخبرت نفراوي أني قررت أن لا أحضر مرت أمامي مس دفي ذاهبة للشاي فتغير عزمي دفعة واحدة‹.

وفي السبت التالي نجد مشرفة يروي أنه استجاب لحديث فتاة أخري بينما ماري دفي تجلس وراءه بمقاعد كثيرة.

ولا تزال الأمور تتطور شأنها في ذلك شأن العواطف الصادقة التي تتقلب بين مد وجزر، وعلى الرغم من أن مشرفة قد قرر في ١٧ مارس (على ما سجل في يومياته) أن من الأوفق ترك ذكر علاقاته بالبنات البريطانيات في حديثه مع زميليه المصريين، إلا أننا نجده وهو يروي أنه قد تحدث بشأن إحدي البنات مع مسز مودي صاحبة المسكن، وهو يعود في ٤ أبريل إلى مناقشة الأمر نفسه مع الغمراوي، وفي يوميات ١٢ أبريل يسجل أن ›مسز مودي‹ حذرته من إحدي الفتيات من جيرانهن.



٦ ـ الحياة اليومية لصاحب اليوميات

تدلنا اليوميات على تفاصيل أسلوب مشرفة في الحياة، وهو يشير إلى كثير من عاداته اليومية، وكيف كونها وكيف عدل عنها أو عدلها.

وعلى سبيل المثال يذكر مشرفة تفاصيل تعاقده على تعلم البيانو والغناء على نفقته [يوميات ١٩ مارس]. كما تتضمن يوميات بعض تفاصيل عن حالته الصحية بخاصة ألم الأسنان الذي صادفه .

يتحدث مشرفة عن أهل البيت الذي كان يعيش فيه بتعبير »مَنْ في المنزل«، وذلك على عادة الحياء الشرقي في الحديث عن الآخرين والأخريات.

٧ ـ حرص مشرفة على صورته في أذهان الآخرين

ينم هذا الخلق عن روح الرجل المسئول في هذا الشاب الذي كان حريصا على أن يكون مثاليا فيما بينه وبين نفسه، وفي أذهان من يعرفونه. وعلى سبيل المثال ينتبه مشرفة إلى الخطأ الذي وقع عند كثرة حديثه عن تفوقه فيقول:



»يخيل لي أني تكلمت أكثر مما كان يجب على أن أتكلم في أمور حصولي على الدرجة العظمي [١٠٠٪] في امتحان التكامل اليوم، وفقني الله وهداني«.

وبعد أسبوع نري في اليوميات ما يدل على أنه بدأ يستعيذ بالله من إعجابه بنفسه:

»وكان الحماس ملأني في الطريق فجفلت أتخيل نفسي قد وضعت رواية أصف فيها نفسي وما يعتريني من الأطوار في حياتي وكأني أعجبت بنفسي، قلت أعوذ بالله من الشيطان الرجيم«.

يجد مشرفة في نفسه قدرة فائقة على تسجيل انتقادات زملائه له [حتى لو لم تكن مواجهة أو مباشرة]، وهو في هذه الحالات يكظم غيظه ويدعو ربه أن يوفقه للسداد وأن يكون عند حسن ظن الناس فيه (يوميات ٢ يناير)، ويبدو لي أن مشرفة كان يستشعر ارتفاع شأنه يوما بعد يوم، فها هو في ٢٩ يناير يسجل في يومياته ما أدركه من أنه لابد أن ينتقل

إلى أسرة أرقي:

›اليوم تجلي لي وجوب سكني بين أسرة أرقي من التي أسكن فيها، فقد مللت معاشرة هذه الطبقة فلعل الله هادي.

انظر كيف يقلب الله الآراء، فلقد حسبت نفسي مقيماً حيث أنا ما شاء الله دَهَراً طويلاً!‹.

وهذا هو ما حدث بالفعل واجتهد مشرفة من أجله على نحو ما يروي في يوميات اليومين التاليين.

٨ ـ الشعور الديني

يتجلى شعور الدكتور مشرفة الوطني والديني خلال مناقشاته لزملائه، وهو يذكر بكل وضوح [في يوميات ١ يناير] أنه اتفق مع زملائه على أن يحضروا عيد الفطر في لندن مع إخوانهم المسلمين، وهذا ما حدث بالفعل بعد ستة شهور حسبما تدلنا يوميات ١٠ يوليو ١٩١٨.

ويصل مشرفة في كثير من المواضع في اليوميات إلى الحرص على تسجيل اعتقاده في أهمية الرجوع إلى الدين وهو يقول في يوميات ١٠ يناير ١٩١٨:

›لا مبدأ أشرف من الدين، ولا عاصم إلا كتاب الله، ولا عمل هو أقوم سبيلا وأهدي طريقا من الدعاية إلا الإسلام الصحيح ومبادئه الحقة. مَنْ فعل ذلك فله إحدى الحسنيين وهو في الآخرة من السعداء. فاللهم اجعلني ممن نصبوا أنفسهم لنصرة دينك وإقامة دعوتك وإعلاء كلمتك ما ذكرك الذاكرون.. اللهم ثبت جناني، وقوم لساني، واعصمني من المعاصي، وحل بيني وبين الشيطان الرجيم‹.

ينتبه مشرفة في كثير من المواضع إلى ما سبق أن ألمحنا إليه من إعجابه بالفن كوسيلة تربوية، وهو يتنبه إلى أن عليه دوراً في نشر سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ويشاركه الغمراوي هذا الشعور وهو يسجل في يومياته:

›ما أجهل ناشئة مصر اليوم بتاريخ النبي عليه الصلاة والسلام، وأنا من الذين جُني عليهم في ذلك. إذ أنا أقرأ الحديث الشريف فألتذ له [أي أحس باللذة والسرور]، إذ تتمثل لدي روح النبي صلى الله عليه وسلم، أعاهد الله على أن أعمل

على نشر سيرة النبي وحديثه الشريف بين المصريين عامة، وعقول النشئ خاصة.. والغمراوي معي في ذلك‹.

وينعي مشرفة على المسلمين تخاذلهم في نشر الإسلام ومجابهة المبشرين، ويستثيره مقال لإحدي المبشرات فيرد عليها في يومياته، وفي يوم تال يروي ما حدثته به نفسه من ضرورة التصدي بالكتابة للرد على هذه المبشرة.

وفي يوميات ١٩ يناير يشير مشرفة إلى نفوره مما بلغه عن محاولات التبشير في مصر فيقول:

›أخبرني الغمراوي أن واحدة تطوعت للتبشير في مصر بآراء الغرب عن المرأة و›تحرير المرأة‹ كما يسمونها، قلت: هل يبعث هؤلاء القوم إلى التبشير حب الخير وهل هم مخلصون؟ الله أعلم. ولكن أيا ما كان الباعث لهن فخير لنا ولهن لو وفرن على أنفسهن المشقة‹.

يبذل مشرفة جهدا كبيرا في تبيين حقيقة الإسلام لغير المسلمين ممن يشاركونه في المنزل، وعلى الرغم من يأسه من أن يكون لجدله فائدة فإنه يستمر فيه مع الندم على ضياع الوقت، وهو يقول على سبيل المثال:

›ثم أتممت ليلتي مع مَنْ بالمنزل في جدل ديني، الله يعلم ما من ورائه جدوي إلا أن يفهمهم قليلا عن الدين الإسلامي، وقد يصلح في عقولهم آراء عن الإسلام كانت من قبل، ولكني قد صرفت من الوقت كثيراً فيها لا طائل تحته. اللهم ألهمني أن أستفيد من وقتي خير ما أستطيع أن أستفيد‹.



٩ ـ فكرة التدين

تحفل يوميات مشرفة بالإيمان بقدرة الله، وهو يردف إحدي المناقشات العلمية بقوله:

›هذا ما يدلنا على أن الإنسان مهما وصلت إليه خبرته بالكون فهو لا يصل إلى كنه شيء، وهو محتاج إلى معونة الله تعالى في كل أعماله‹.

ويبدو إحساس مشرفة بأهمية العبادات المتكررة من خلال هذا الحوار السريع مع إحدي السيدات في يوميات ١٤ فبراير:

›وقد اجتهدت في أن أبين لها حكمة الصلوات الخمس والرادع الديني للمسلمين. وقد قالت جملة معناها إنك مادمت تقف أمام الله خمس مرات في اليوم والليلة فلا يحتمل أن تعصاه، قلت: ومع ذلك أعصاه، ومن هنا يبين لك أهمية الصلاة‹.

بل إن مشرفة يشير في يومياته إلى شوقه إلى أداء فريضة الحج في يوميات الأربعاء ٢٠ فبراير ١٩١٨.

على عادة المسلمين الذين تربوا على الأخلاق الدينية، نري مشرفة وهو يسجل إعجابه بزميله الغمراوي حين أدرك صلاة حان وقتها، ولم يدركها مشرفة لأنه لم يكن متوضئاً. وفي يوم آخر يعبر عن مرارته من أن صلاة المغرب في موعدها قد فاتته.

١٠ ـ الشعور بالانتماء الوطني

ربما يفزعنا اليوم أن نري هذا الشاب في ١٩١٨ وقد كون رأيه في الانتماء السياسي بحيث كان أقرب إلى تغليب الدين على الوطنية، ولكن لا ينبغي لنا أن ننسي الظروف السياسية في ذلك الوقت:

›فقلت له: بصراحة إنني مسلم أتبع ديني في كل ما أمرني به الله، لا تهمني وطنيتي إلا من حيث يأمرني ديني، لو كان في سيادة الإسلام خذلان مصر لخذلت مصر. قال غمراوي: هذه **Emphatic Way** قلت: كلا هي حقيقة أعتقدها. قلت له: وأنا أصرح برأيي هذا لكل شخص ولا أخشي أحدا‹.

ويظهر من يوميات مشرفة أنه كان بحكم الفطرة والطبيعة الصادقة يعد نفسه لدور وطني سياسي لا علمي فحسب، وهو يتحدث عن هذا الدور فيقول:

›قرّ رأيي والغمراوي على أن ننهج إذا رجعنا إلى مصر منهج استكانة وتحاب مع العلماء من مصر حتى نكسب ثقتهم ويكسبوا ثقتنا ويتشبعوا بمبدأنا القويم، ويكون همنا أن نوحد الأمة ونربط ›المعممين‹ بإخوانهم ›الأفندية‹ بما يجعل لهم الثقة في نفوسهم‹.

كذلك يحس مشرفة بالواجب الوطني في بعثته وأهمية العمل على وضع المصطلحات العلمية باللغة العربية:

›اليوم خاطبت الغمراوي في ذكر أمرين، الأول أن طلبت منه الاهتمام بوضع مصطلحات كيميائية عربية، والثاني أن ذكرت أنه من ضمن واجبنا هنا التجهيز للرد على الآراء المضادة للإسلام وفهمها كما يفهمها القوم‹.

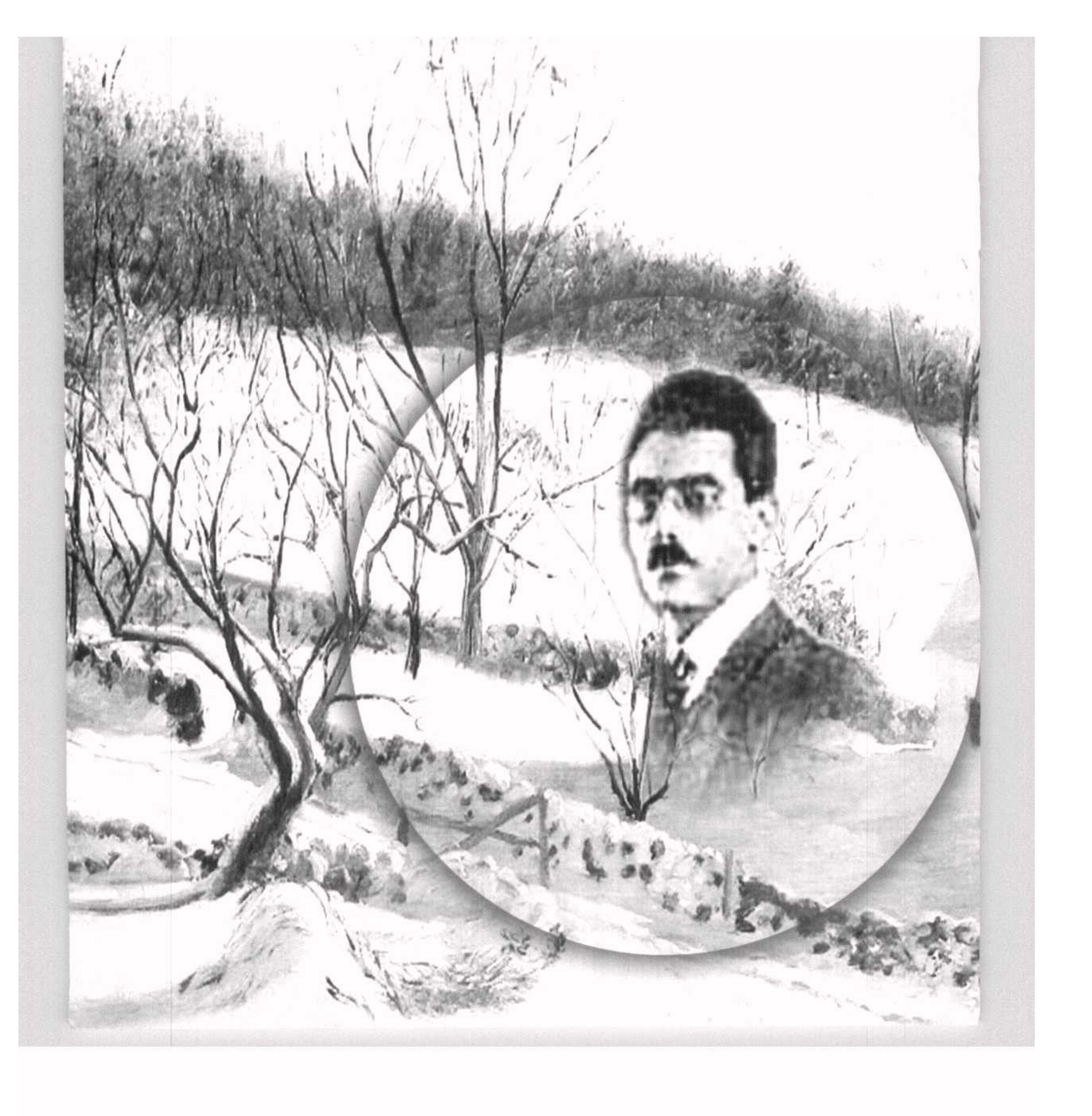
كان مشرفة حريصا على أن يراجع تاريخ بلاده، وهو بعد أن طالع بعض تاريخ الثورة العرابية وما تلاها يترحم على محمد عبده ويتمني وجود بضع رجال من أمثاله.

يتضح الشعور الوطني متأججا عند مشرفة في استنكاره تعيين إنجليزي لإحدي وظائف في مصر، وذلك على نحو ما نري في يوميات الجمعة ١٨ يناير ١٩١٨:

›قرأت في التايمز أنهم عينوا إنجليزيا مديرا لتوزيع البترول في مصر لقلته، قلت: بالله أما كان بين المصريين مَنْ يصلح لهذه الوظيفة؟‹.

تحفل يوميات مشرفة بالتفكير في أهله وإخوانه، ويكرر الدعاء لأخيه مصطفى بالهداية (يوميات الخميس ١٠ يناير)، ويحدث نفسه في أمر قسوته على أخيه عطية في يوميات ٢٥ يناير فيقول:

›الخطاب الذي كتبته لأخي عطية اليوم كان شديد اللهجة، أردت به أن أصلح ما أعوج من خلقه، وسألت الله تعالى أن يوفقني لمرادي‹.



١١ ـ الطبيعة

تحفل يوميات مشرفة بوصف مظاهر الطبيعة التي لم يكن له عهد بها في مصر:

»اليوم أول يوم رأيت فيه الجليد الأبيض يهوي إلى الأرض طائرا في الهواء ناصع البياض.. غطي قبعتي ودثاري فالتمست دكانا ولجته [دخلته] اتقاءه«.

وفي يوم تال له يقوده تأمله إلى فهم بعض التشبيهات الجارية على الألسن فيقول:

»خرجت اليوم عصراً فإذا بالجليد الأبيض قد كسي الأرض حلة بهيجة نضرة. لم أفقه [أفهم] معني »أنقي من الجليد« حق فهمه قبل اليوم«.

ويتأمل الدكتور مشرفة علاقة الإنسان بالطبيعة على نحو مخترق لكثافات العادات والطبيعة البشرية، وهو ـ على سبيل المثال ـ يعجب من أن يزيح الإنسان الجليد ليمشي بينما هو نفسه قد جرب المشي عليه فوجده أسهل من المشي على التراب إذا ما سار الإنسان عليه بخطوات منتظمة، وهو يسجل في يومياته هذا المعني فيقول:

»ما أجمل الجليد يغطي وجه الأرض والإنسان يزيحه فيمزجه بالتراب ليفسح طريقاً لسيره، ولقد، والله، شرح المنظر نفسي حتى كنت أمشي في طريقي مترنماً أخطو خطوات منتظمة توافق ما ترنمت به وشعرت بفوادي قد خف في صدري. نِعَمُ الله قد أسدلها علينا وما نقدرها حق قدرها ولا نفهم سرها، والإنسان حانق على بيئته أيًا ما كانت«.

كذلك فمن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن مشرفة قد أغرم بطبيعة سويسرا غراماً شديداً وذلك نتيجة أحاديث صديق له [راجع يوميات ١٧ مارس و٦ مارس ١٩١٨].

١٢ ـ الحوار (التعامل مع الآخر)

ينتبه مشرفة من خلال نقاشه مع الغمراوي إلى أهمية الأسلوب أو التوجه الذي ينبغي عليه أن ينهجه في حديثه إلى الإنجليز، وهو يصف هذا الأسلوب ببراعة بألا يكون خطابه: »خطاب مدافع أو داعٍ، بل خطاب أحد الطلبة يعرف

أمور أمته ويعرض منها عليهم حقائق يلتذون (يسرون) منها، ويدحض بها آراء قد تدور بخلدهم تشين [من] مصر في نظرهم».

وفي يوميات يوم تال يهتدي مشرفة إلى الأسلوب الأمثل ويصوغه في قوله:

«لا نحاول إقناع أحد بآرائنا حتى يبدأنا بالمحاجة، فإن حاجنا حاججناه محاجة المقتنع الذي لا يحرص كل الحرص على إقناع محادثه، فذلك أقرب إلى أن لا ينفر منا القوم».



خاتمة

من خلال السطور السابقة نجد أن د. مصطفى مشرفة من الشخصيات التي أثرت التاريخ المصري وأضاف الكثير لنا و للعلم الكثير فقد كان مثالا للعالم الذي يعطي كل وقته و جهده لعمله ولا يضع أي مصلحة شخصية قبل مصلحة الوطن وهو مثال يحتذى به في التفاني و الإخلاص في العمل ودليل على أنه عندما نضع لأنفسنا هدف و نعمل بجد من أجل تحقيقه سنصل حتما لهدفنا ونحقق ما نريد.

فمن يخلص لما يسعى له ويجتهد من أجل تحقيقه يجني ثمار تعبه و يسجل أسمه في التاريخ من الناجحين ويستحق أن يكون قدوة لنا ودليل في طريقنا للنجاح و العمل و قيمة العلم التي يجب أن تكون من أهم القيم في حياتنا فبالعلم والفن والأدب ترتقي الأمم وتسير للأمام.






الادارة المركزية للطلائع